

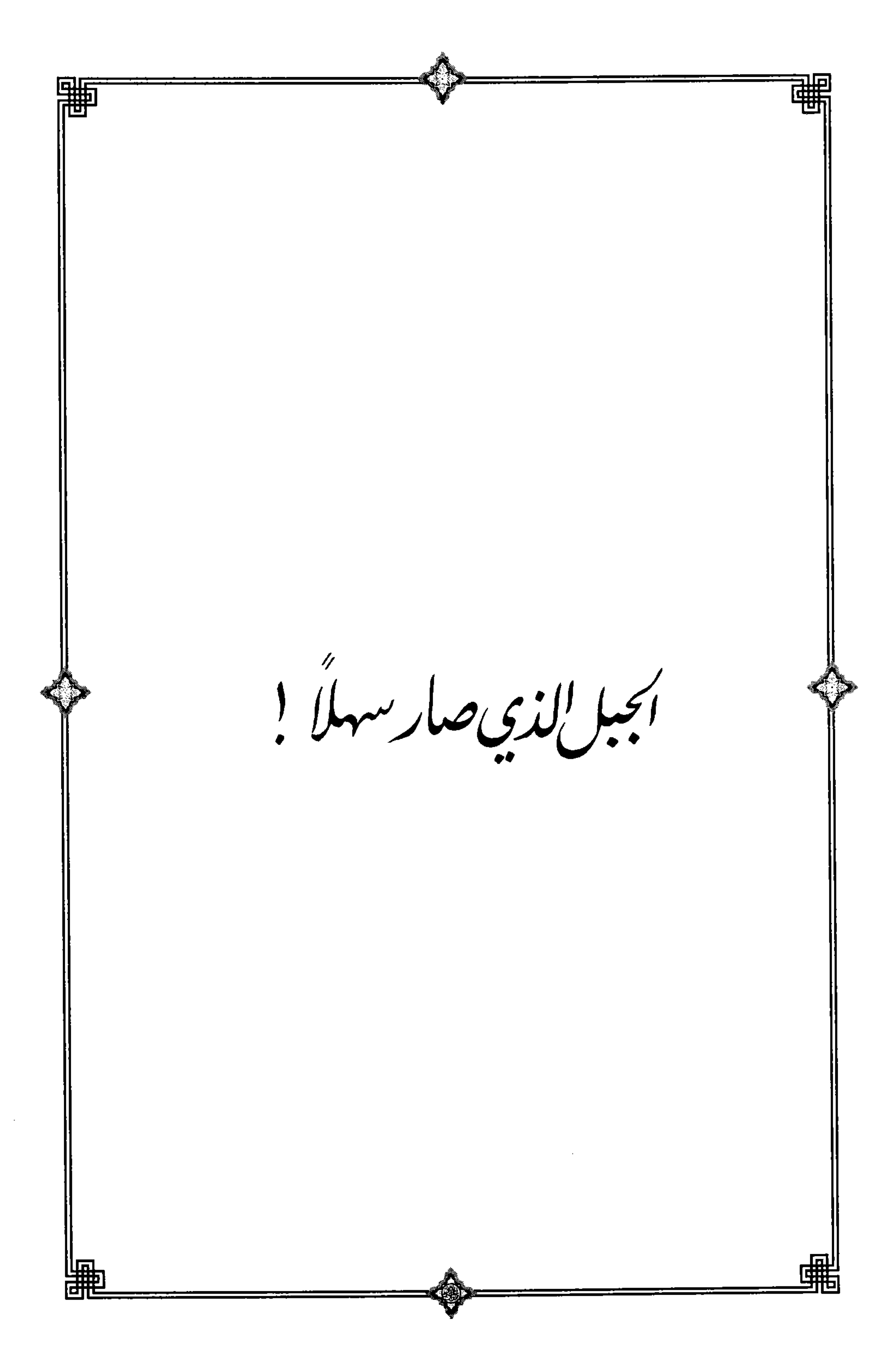
الكتاب العربي السعودي ١

أحمد قنديل



الجبل الذي صار سهلاً !

الطبعة الأولى
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م



الجبل الذي صار سهلاً !



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

"الجبل الذي صار سهلاً" يسعدنا أن يكون بداية لمرحلة من مراحل نمو تهامة، ويسعدنا أيضاً أن يكون عنوانه عنواناً لتجربة قررنا أن نخوضها.. فعلى الرغم من أن أديبنا الراحل الأستاذ أحمد قنديل يصوّر فيه تجربة ذاتية عميقة تنطلق من واقع الانتماء وتبرز في جلال محلق صورة من صور الإنجازات الكبيرة، إلا أننا أردنا أن نخوض به تجربة مماثلة.. ولكن في ميدان النشر.

إننا ندخل هذا الميدان لا لمجرّد نزوة عارضة.. وإنما لرغبة عارمة تولّدت عن قناعة أملتها ظروف ومتطلبات التنمية البشرية في هذا الوطن الغالي، وتستمد هذه التجربة أهدافها من حقيقتين رئيسيتين:

أولاهما: أننا أمّة حضارية تمتلك رصيداً ضخماً من التراث الإسلامي في مختلف المجالات، وأن علينا أن نستحدث ما أمكن من القنوات المختلفة للعمل على تحقيقه ونشره وتداوله في أرجاء الأرض.

وثانيهما: أن واقعنا المعاصر يتطلّب عناية فائقة في الاهتمام ببناء الإنسان.. وأن متطلبات التنمية البشرية تحتاج إلى كل الوسائل الناجحة

لبناء الإنسان المسلم بناء يستمد أصوله من المبادئ الخلقية والإنسانية لعقيدته الإسلامية.

وفضلاً عن ذلك، فإن القناعة بضرورة نشر المعرفة، وإتاحة الفرصة لرجال الفكر لنشر أعمالهم من خلال مؤسسة وطنية كانا من أهم الدوافع للتفكير في ارتياد هذا الميدان.

ولقد استلزم الأمر في البداية أن نفكر في مفهوم النشر من خلال تعريفاته المقننة، فوجدناه لا يقتصر على تأليف الكتاب أو تصنيعه أو تسويقه، بل يجمع كل هذه الأطراف الثلاثة معاً، وأن هذه العناصر الثلاثة مجتمعة تمثل حجر زاوية في الحكم على الملامح الثقافية في أي مجتمع من المجتمعات.

ومن هنا كان علينا أن ندرس حركات النشر في مختلف دول العالم، ما هي ظروف نشأتها؟ وما الذي وصلت إليه؟ وما الذي تمثِّله اقتصاديات الكتاب في كلٍّ ثقافة من الثقافات المختلفة؟

وعند دراسة واقعنا المعاصر في مجال النشر في المملكة العربية السعودية كانت تسيّطر علينا حقائق كثيرة أهمها:

١ ـ أن التنمية البشرية والاجتماعية تعدان من أهم الأولويات في خطط الدولة، وأن ترجمة هذه الأولويات يتطلب إسهاماً فكرياً من قبل المفكر السعودي.

٢ ـ أن فلسفة التعليم العام بمراحله المختلفة سواء المدرسي أو العالي أو المهني تقوم على مبادئ دينية وأخلاقية إسلامية.. وأن من الضروري متابعة تطبيق تلك الفلسفة وبلورتها في الأدوات التعليمية والتثقيفية وأهمها الكتاب المدرسي والكتاب الجامعي.

٣ ـ أن الدولة تستثمر كل جهودها في إعداد الكفاءات والكوادر العلمية المؤهلة تأهيلاً عالياً كي تضطلع بأدوار التوجيه أولاً، ثم بأدوار المتابعة والتطوير عن طريق البحث العلمي، وأن من الضروري أن تقوم مؤسسات متخصصة للنشر تعمل جنباً إلى جنب مع المؤسسات العلمية لتنشيط حركة البحث العلمي وتطويره.

٤ ـ أن كثيراً من المفكرين المعاصرين يواجهون صعوبات جمّة في تمويل ونشر أعمالهم الفكرية، وأن المؤسسات الوطنية القائمة ليست كافية لاستقطاب هذه الأعمال.

٥ ـ أن رأس المال السعودي الذي استثمر في مجالات شتى، عليه أن يساهم في مجالات النشر ويشارك في المجالات التي تعمل على بناء الملامح الحضارية لهذه الأمة.

٦ ـ أن الدور الريادي الحالي للملكة العربية السعودية، وخاصة في ظلِّ ظروفٍ دولية متغايرة ومتفاوتة يتطلّب بذل جهود كبيرة لتأكيد الملامح الخاصة لمجتمعنا المسلم.. وأن أوعية الفكر وأهمها الكتاب يمكنها أن تبلور تلك الملامح.

٧ ـ أن الاقتصاديات الحالية للكتاب السعودي لا تتناسب وأهمية الدور الذي تلعبه المملكة على المستوى الدولي في مختلف المجالات.

ومن هنا كان علينا أن نخوض هذه التجربة.. نخوضها لأننا على يقين من أهميتها.. كما نخوضها لأننا نؤمن أن من واجبنا كمؤسسة وطنية أن تساهم مع الدولة في كل ما من شأنه رفعة وتقدم هذه البلاد.. وسنجد في سبيل ذلك كل دعم وتأييد بإذن الله. وسنخوض التجربة في مجالات عديدة.

في مجال المعرفة العامة، ستتولى تهامة للنشر إصدار عدد من

السلاسل كسلسلة الأعمال الأدبية السعودية، وسلسلة الدراسات التاريخية، وسلسلة الدراسات الاقتصادية، وسلسلة الدراسات الاجتماعية وغيرها.

وفي مجال المؤلّفات الجامعية ستستقطب تهامة للنشر جهود أعضاء هيئات التدريس من السعوديين عن طريق نشر مؤلفاتهم وتسويقها.

وفي مجال البحوث العلمية ستتولى تهامة للنشر إصدار سلسلة الرسائل العلمية، كما ستقوم بنشر البحوث العلمية التي يعدها الباحثون في المملكة العربية السعودية.

وفي مجال المؤلفات الخاصة للأطفال، فإن تهامة للنشر ستعمل على نشر سلسلة للأطفال تستمد أصولها من واقع البيئة السعودية وتقوم على المبادئ الخلقية والإنسانية للدين الإسلامي.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن التراث المخطوط سينال العناية الخاصة، وسوف تستثمر المؤسسة جهودها في سبيل تحقيقه ونشره.

وحتى لا نكون مغالين في تصوّرنا، فإن إنجاز مثل هذا المشروع يتطلّب جهداً ووقتاً كبيرين، لا سيما وأن الكثير من التجهيزات الأساسية كالمطابع والعمالة وقنوات التوزيع الداخلي والخارجي ليست بصورة متكاملة، وحسبنا أن نبدأ بداية جيدة، ونخطو خطوتنا الأولى، فطريق الألف ميل يبدأ بالخطوة الأولى..

وإذا كانت تلك آمالنا، فإن تحقيقها يعتمد بالدرجة الأولى على التعاون الصادق الذي يمكن أن يتم فيما بين المؤلّف الجيد والقارئ المناسب والناشر الكفؤ.

وإلى "الجبل الذي صار سهلاً" . . .

تهامة

مقدمة

أهل الأدب في هذه البلاد طبقات كأهل الأدب والعلم والحِرَف والهوايات في كل زمان ومكان.. ويأتي أحمد قنديل في مقدمة الطبقة الثانية مع حمزة شحاته ومحمد حسن فقي وحسين سرحان وغيرهم، كما يأتي في مقدمة الطبقة الأولى محمد حسن عواد ومحمد سرور الصبان وعبد الوهاب آشي، وغيرهم أيضاً.

وليس الزمن وحده هو مدار الفرق بين الطبقات، فربما كان في الجيل الثاني من لا ينقص عمره كثيراً أو قليلاً عن بعض من في الجيل الأول أو العكس، وإنما يؤخذ في الحساب، بعد الزمن والعمر، عامل الظهور والانفعال بالحركة الأدبية التي يرجع الفضل، ولا شك، في إيقاظها وإشعال جذوتها إلى الرعيل الأول.. أما الزمن فإنه قد يذوب تدريجياً بين الطبقات، إذ يبدو أبناء الخمسين والستين والأربعين وما بينها وكأنهم جميعاً أبناء جيل واحد!.

وليس من همّي الآن استعراض الطبقات كلها إلى الجيل الأخير الذي يطفو على السطح في هذه الأيام، فذلك يتطلّب دراسة شاملة وبحثاً متفرغاً هدفه النقد والتاريخ والإحصاء على نحو دقيق يتحرّى الصواب، ويتفادى الهوى ومزالق الخطأ والارتجال، وإنما أردت أن أضع أحمد

قنديل في الطبقة التي هو منها وإليها كما أظن..

وإذا كان لي شأن يذكر فإنني كآخرين في مقدمتهم حسين عرب وعبد الله عريف وسيف الدين عاشور وسواهم ـ من أبناء الطبقة الثالثة التي تأتي بعد طبقة أحمد قنديل، فلقد كان يرأس تحرير صوت الحجاز التي كانت تصدر بهذا الاسم حينذاك، وتصدر حالياً باسم "البلاد" بعد تطورات متلاحقة بين الاسمين.. وكنت يومها ما أزال طالباً أدرس وأتابع حركة الأدب ـ وأحمد قنديل في مدارها ـ بشغف وانسجام..

ثم تحولت علاقتي بهُ إلى خط الصداقة من نحو أربعين عاماً، وأحسب أنها كانت بيننا شيئاً يتخطّى الصداقة إلى الاندماج فيَ بعضنا في علاقة صَمِيميَّة دائمة لا تكاد تفتر، ثم لا نكاد نفترق عن بضعنا إلا فيما ندر.. وكان هذا في ريعان الشباب.. يرحمه الله..

كان يعمل بوزارة المالية، وكنت أعمل بمطبعة الحكومة.. ثم بديوان "فيصل بن عبد العزيز" نائب الملك في الحجاز حينذاك..

ثم تشعبت بنا كعادتها خطوط الحياة، فلم نعد نتلاقى إلاَّ قليلاً، ولكن ما بيننا ظلّ حيث هو في مكامِنِه وطواياه..

وكما هو واضح بالبداهة لا يعني تعداد الأجيال وتوزيعها على نحو ما أسلفت أنها تأخذ الترتيب نفسه في التفوّق والإتقان، وإلاَّ لكان حظ أجود الشعراء والأدباء والفنانين في العصور الأخيرة حظاً سيئاً إذا وضع قبلهم بعض من سبقهم في العصور السابقة هم دونهم في ميزان التقييم الصحيح. وهناك من تخطوا عالم الجيل المحدود، فلم يعودوا ينسبون إلى جيل ما إلاّ لمجرّد العلم والتاريخ، وإنما يحسبون من الأفذاذ على مرِّ الأجيال..

ولعلي لا أبالغ إذا قلت: أن أحمد قنديل الشاعر العربي واحد من هؤلاء، فإن له شعراً عربياً لا يكاد يهبط في مستواه عن مستوى فحول الشعراء في العالم العربي عموماً..

أما هو فيما عدا ذلك من الشعر "الحلمنتيشي" الذي عرف وتفوق به على كل من حاولوه، وهو الشعر الذي يخلط الفصحى بالعامية، فإنه شاعر "بلدي" و "البلدي يؤكل" كما يقول المثل المعروف..

نعم.. كان شعره "البلدي" أو "الحلمنتيشي" يؤكل إذا جاز أن يؤكل الشعر، ولئن كان معظم القراء يتجاهلون أو يلقون نظرة باردة على معظم الصحف وأبوابها فإن شعره هو يظل مادة مقروءة على مختلف المستويات..

وهو فيما عدا الأول والثاني في دنيا الشعر كاتب "بلدي" بكل معنى الإخلاص التلقائي للبلد، لغة وتاريخاً، وروحاً، وفكاهة يغلب عليها وعلى الأدب والفن عموماً فيه ـ مزاج "الكاريكاتير" وهو مزاج يسخر ويضحك ويستعرض المفارقات ويستطرد إليها عضواً لا اصطناع فيه، وعلى نحو فكه لا يخلو من النكتة ومن طرافة الصورة، ولهذا يلوح أثره وتأثيره أقوى بين أهل البلد..

وإذا كان من يكتب أو ينظم بأسلوب هذا المزاج لا يتحرّى المثالية فإنه هو لا يبعد كثيراً عنها.. على الأخص إذا كتب بالفصحى..

بلدي بمعنى الكلمة ومقوّماتها على ما تمتّع به من اطلاع واسع في دنيا الأدب وسواه، ولقد كان قارئاً لا يكاد يمل القراءة في أي جو كان، ومع أي كان أحياناً..

ولقد سبقني حمزة شحاته إلى إطلاق هذا التعريف البلدي عليه[١]، فما أضيف به جديداً، ولكنني أتسلل منه إلى موضوع هذه المقدّمة، وكان قد زارني قبل نحو سنتين بملف في داخله أوراق معدة للنشر بعنوان (الجبل الذي صار سهلاً) وسألني أن أكتب مقدمته، فاستبقيته عندي.. وتبيّنت بعد مراجعته أنني قرأت معظمه فصولاً منشورة في صحيفة (عكاظ) ولكن ما بين يديَّ منها لم يكن يخلو من التشويش، ومن رداءة الطبع، وغموض بعض الألفاظ والعبارات، وكأنما التنسيق غير حاصل بينها.. إلى آخر ما تحدثت إليه عنه.. وأعدت له "الملف" لمراجعته وتنسيق محتوياته، وتصحيح أخطاء الطباعة، وسرعة الأداء التي كان لا يبالي أن يجري بها فيما يكتبه، ثم لا يحاول إعادة النظر فيه، وألزمته بها أخوياً، وأقتنع وأخذ الملف.. ثم أصبحنا نلتقي لماماً، وعلى سطور ما ينشر له شعراً ونثراً في بعض الصحف.. وقد مضى على آخر لقاء به نحو عام..

وفوجئت وأنا أقلب الصحيفة بخبر وفاته.. وخيّل إليّ أن أفكاري توقفت عن الحركة، وغابت نفسي عن وجودي لحظات طالت وطال جمودي فيها على "الحوقلة" وعلى شيء أكثر من الاحتدام في صدري..

ولكنه مات.. وانتهى كعشرات الملايين التي تذهب من وجودنا إلى وجود آخر لا يعرف حقيقته وتفاصيله إلا خالق العدم والوجود.

وطويت أحزاني وخلجاتي كما طويت وأطوي مثلها كلما ذهب من وجودي واحد من طراز أحمد قنديل..

---

(١) كان حمزة شحاته ينشر مقالات متسلسلة بعنوان "حنفشعيات" من ضمنها مقال عن أحمد قنديل في هذا التعريف .. وأحسبها قد ظهرت في كتيب صغير بعنوان (حمار حمزة شحاته) وليتها ظهرت بعنوانها القديم في "صوت الحجاز".

ومضت الأيام عليه رفاتاً أسأل الله الرحمة له ولكل من ذهبوا من "أمة محمد ﷺ" ولكن صداه لم يمض، فما زال حيًّا وسيظل كذلك ما دام في الدنيا بلد وأدب، وشعر و"كاريكاتير" وإخاء وصميمية يكاد يتلاشى غطها في أيام كالتي نعيشها تطورت الحياة فيها إلى الأعلى ظاهراً، وإلى الأدنى فيما دون الظاهر اللماع!

وجاءني (الجبل الذي صار سهلاً) من "مؤسسة تهامة" وعلى وجه التحديد من الأستاذ الصديق محمد سعيد طيب مدير هذه المؤسسة، ومن يلوح كمحركات الطائرة فيها، وقال إنها ستخرج (الجبل الذي صار سهلاً) في كتاب على نحو ما كان سيفعل مؤلفه لو امتدت به الحياة، وسألني كتابة المقدمة التي كنت سأكتبها بناء على رغبة المؤلف سابقاً، ثم رغبة أبنائه لاحقاً ـ حفظهم الله.

وأرسل إليَّ ملف الكتاب قصاصات من الصحيفة.. وفي الجواب على تساؤلي عمّا إذا كان أحمد قنديل (يرحمه الله) قد أعاد النظر في محتوياته على نحو ما ذكرته من قبل ـ قال الطيب يلوح أنه قد فعل، وأن النسخة التي هي تحت الطبع منه مصحّحة بقلم المؤلف على نحو دقيق.. ولم يشجعني واقع القصاصات كما طبعت في (عكاظ) على قراءته إلا بالنظرة العابرة والاستعراض السريع، فلقد كان بعض الألفاظ والعبارات تتداغم فيه بما يجعل المعنى أو الترابط شيئاً غير مفهوم.. وهذا يعود لرداءة الطباعة وأخطائها، كما قد يعود لطريقته في الكتابة والاستعجال إذا كتب، وأحسب أنه وآخرين ممن أعلم أو لا أعلم لا يعودون بالقراءة الفاحصة لما يكتبونه، ولعلّ ظروف النشر المتواصل لغرضه الأدبي أو المادي أو كليهما لا تساعدهم على ذلك لو أرادوه، فما يبالون أن يدفعوا

لموعد النشر وحيّزه المقرّر ما قد يكون في حاجة إلى إعادة النظر باستهداف الإخراج الملائم! والمفروض أن القنديل قد فعل ذلك وصحح الكتاب في النسخة التي تحت الطبع عن مؤسسة تهامة إذا صحّ ما فهمه عنها مدير المؤسسة.

على أنني كنت قد قرأته أو قرأت معظم فصوله التي كانت تنشر تباعاً في "عكاظ" حيث لم تكن تكلف متابعتها وتصحيح مفهومها ـ كلما اقتضى الأمر ـ جهداً كالذي ينبغي لمتابعتها جملة واحدة تهيأت للنشر، على ما بالنسخة التي لديّ منها مما أرجو أن يكون المؤلّف قد تفاداه بإعادة النظر كما أسلفت، كما أرجو أن لا تهمل المؤسسة واجبها تجاه تصحيح ما ستخرجه للناس على نحو دقيق.

والمهم هو أنها ـ على أي حال ـ فصول طريفة تنقل القارئ إلى ذكريات بعيدة كذكريات الحج في الماضي قبل عصر السيارات، وذكريات الصعود والنزول من الطائف وإليه عن طريق جبل "كرا" الذي صار سهلاً، وعن جو الحياة ومظاهرها وقصصها حينذاك.. و ما أحسب أن كاتباً قبله قد تحدّث عن شيء من ذلك، وأحسب أنه قد سدّ فراغاً ما زال يتطلّب المزيد من جهود القادرين على تصوير واقع الحياة بمظاهرها المختلفة في أيام مضت، كجزء من تاريخنا سوف تجهله الأجيال القادمة إن لم تجد في مواجهتها ما يصوّره، كما كان، في أي عمل فني كالذي ساهم به القنديل في سدِّ شيء من ذلك الفراغ!

ولم يَخْلُ كتابه من استطرادات كثيرة إلى الأدب، والشعر، وإلى ذكريات شتى، وإلى أكثر من لمسة فنية لأكثر من واحد من أصدقائه.. في إطار واحد هو إطار ذلك الماضي كما عاشه هو وعاشه الناس في

عهد الجمل والحمار، والفوانيس، وأسلوب الحياة إجمالاً في ذلك العهد.

وأسلوب أحمد قنديل في هذا الكتاب هو أسلوب تلك الحياة مع هذه التي نعيشها اليوم، وقد انطبعت ملامح "البلد" بمزاج "الكاريكاتير" فيه، حتى إذا كان ينقصه الاحتفال أو التصنُّع لروعة الأداء أو أناقته فإنه يشد القارئ إلى متابعته والاندماج معه وفي جو ما يتحدث عنه بشغف واهتمام!

ولعل أحسن وأخصر تعريف لكتاب (الجبل الذي صار سهلاً) هو الذي كتبه مؤلفه بقلمه في نهاية صفحات الكتاب حيث قال عنه:

"ليس هذا الذي قرأت هنا.. قصة.. ولا هو رواية.. بالمعنى الحديث.. ولعله نوع من.. حكاية مطلقة.. حكاية من نمط ساذج مبتكر.. نابت فيه القفزة.. والاستطراد مناب قاعدة التسلسل.. والوحدة.. والموضوعية.. فلا حبكة.. ولا عقدة.. ولا مفاجأة فيه إطلاقاً".

"هو.. بهذا المفقود.. من الموجود.. خواطر.. وسوانح مبعثرة.. ذكريات متناثرة متباعدة كالأيام ذاتها.

ربما كان أقرب شبه لهذا الذي قرأت.. أنه أوراق خريف تَتَحاتّ.. وتتساقط من شجرة عمر مكتوب" . . .

محمد عمر توفيق

الجبل..
قصيدة للشيخ محمد صالح القزاز

هذه أبيات قلتها بمناسبة الانتهاء من فتح الطريق عبر جبل كرا الذي قام به الشيخ محمد بن لادن بتوجيه من صاحب الجلالة الملك فيصل.. وقد تم العمل في هذا المشروع في أوائل عام ١٣٨٥هـ وأقيم احتفال كبير لهذه المناسبة في ٣ صفر ٨٥هـ برئاسة صاحب الجلالة الملك فيصل "حفظه الله"..

قلت مخاطباً الجبل:

أيُّها المُشَمخِر ويحك خبِّر ... بالذي شقّ فيك دربا وعبّد

والذي خطط الطريق وسوّى ... في ثناياك ـ جادة ـ تتصعد

والذي ذلَّلَ الصعاب وأمضى ... فيك أمراً به الإله تَوَعد[1]

والذي حطّم الصخور فَمَادت ... وغدت صفصفا وَهي تَبدد

يعبر الركب متنه دون خوف ... إن مشى هابِطاً وإن هو صعد

يتمطّى عبر الجبال وئيداً ... إن غدا متهماً وإن هو أنجد

* * *

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة "طه": ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ (طه: ١٠٥ ـ ١٠٧).

أيُّها الصاعد المغذ تمهل ... واقتصد في المسير ـ فالعود أحمد

يوم كنا نسير فيه الهوينا ... ثم صرنا نعدو عليه ونصعد

أيهذا التاريخ بالله حدث ... بالذي قد رأيت ـ لا تتردد

وعلى صفحة الخلود فسجِل ... صادق القول عنك يروى ويسند

هل هي الجن من "سليمان" جاءت ... فهوى شامخ.. ومُزِق جلمد

أو هو السحرُ حَول الصَخر تُربا ... لا ولا ذاك بل هو العلم والجِد

بل هو الرأي والعزيمة والصبر ... وذو الرأي فضله ليس يُجحد

رائد الخير ـ فيصل ـ من تسامى ... فوق هام العلا على كل فرقد

نعمة الله أسبغت للبرايا ... منجزات تحققت لمحمد[1]

أيها الشامخ الأبيُّ لقد عشـ ... ـت قروناً ينوء عن حصرها العد

مسبَطِرا تختال في كبرياء ... فإذا جاءك النذير يُهَدِد

مشرعا رمحه سقطت صريعا ... مثخنا بالجراح يومك أسود

فترنح (أيا كرا) في صغار ... تحت وطى الحديد قد خانك الجَد

يَسرّ الله فيك للناس دربا ... كان حلماً فصار أمراً مؤكّد

عمل صالح ونفع كبير ... يشهد الله والخلائق تشهد

---

(١) هو المعلم الشيخ محمد بن لادن (رحمه الله) الذي كافح وصمد في المشروع حتى تحقق هذا المشروع الجبار.

ليس قصة ولا رواية!!

ليس هذا الذي تقرأ هنا ـ قصة ولا هو رواية.. بالمعنى الحديث.. ولعله.. نوع من.. حكاية مطلقة.. حكاية من نمط ساذج مبتكر.. نابت فيه القفزة والاستطراد مناب قاعدة التسلسل ـ والوحدة ـ والموضوعية.

فلا حبكة.. ولا عقدة.. ولا مفاجأة فيه.. إطلاقاً..

هو.. بهذا المفقود.. من الموجود: خواطر.. وسوانح مبعثرة.. ذكريات متناثرة.. متباعدة كالأيام ذاتها..

ربما كان أقرب شبه لهذا الذي تقرأ.. إنه أوراق خريف تتحات.. وتتساقط من شجرة عمر مكتوب!!

أحمد قنديل

(١)
الجبل الذي صار سهلاً

ستكون حكايتنا عن الجبل الذي صار سهلاً.. بمثابة مسلسلة استعراضية.. على طريقة المسلسلات البوليسية.. ترد فيها الذكريات ـ موصولة كاملة.. أو مبتورة الأطراف..

ونتعشم بتلك الصفة ـ أو بهاتيك.. أو بكلتيهما معاً ـ أن تصور هذه السلسلة بعض جوانب الماضي البعيد القريب في بلادنا.. وتشمل.. فيما تشتمل عليه.. تسجيل بعض ما زال واندثر من أماكن وشخصيات.. وعادات مأثورة.. ومسميات. وسيكون الاستطراد كشرط أساسي ـ حجر الزاوية فيها ـ سواء طال به اللف والدوران أو قصرت به الجادة.

وربما جاءت هذه السلسلة.. غير الفقرية.. في فصلين أو في ثلاثة.. أو في أربعة فصول أو أكثر إن لزم الحال ـ وإنا لنرجو مخلصين أن تكون فصولاً حارة.. متفقة مع حرارة الجو الآن.. ونعتذر ـ بحرارة أيضاً ـ أن أتت باردة.. لقدمها.. فهي كالأكل ـ أي الطعام ـ البايت كما نقول لا تنفع فيه كشكشة أو تسخين.. وشفيعنا إن أتت باردة حينذاك ترويجاً لاستساغتها وتجاوزاً على قدمها.. ما جاء في الأثر.. اللّذة في الحار.. والبركة في البارد!!

ولقد كان باستطاعتنا.. أن نرويها بالطريقة الساندويتشية.. وحتى نكون على بصيرة من معاني الألفاظ ترد سواء في دهليز حكاية الجبل.. أو في الحكاية نفسها فيما بعد.. أن نحدد تاريخ الكلمات الدخيلة المستعملة منا.. سواء دخلت الفصحى في الاستعمال اليوم من الباب الخلفي لها.. أم من بوابتها الأمامية.. وتحت أبصار الأساتيذ: الأنصاري، الجاسر، أبي تراب، ممن حضروا والعطار ممن انزووا وأبي مدين ممن غابوا عنا.

فكلمة ساندويتش منسوبة يقيناً أو إشاعة إلى اللور د ساندويتش وهو رجل إنجليزي أدمن الانكباب على لعب الورق.. حتى لا يستطيع هو ورفقاؤه في اللعب أن يغادروا مائدة اللعب إلى مائدة الطعام.. فكان أن طلب من خادمه يوماً أن يعمل لكل منهم أكله السريع الجاهز الخفيف في قطعة من خبز.. بينها ما تيسر من جبن، لحم، زيتون، وفيها شيء من ملح، أو خص.. ويخص من شاء من أفراد الجماعة بما شاء.. فأصبحت هذه الوجبة الرمزية تسمى باسم مؤلفها وهو اللورد ساندويتش في بعض الأقوال.. ومن ذلك التاريخ أطلق على الساندويتش من أي نوع من الأنواع ـ اسم الساندويتش وكثيراً ما ترد الكلمة مع كثرة التداول ـ بالسين بدلاً من الصاد للتخفيف.. والأناقة في النطق..

ولقد استعملناها قريباً للذكرى.. عنواناً لحلمنتشية لنا استطعنا بواسطة شيوعها أن نحدد الغرض ببساطة تامة.. فأصبح مفهوماً.. ببساطة كذلك.. ونوردها لما سلف وللتأكيد في الآتي:

ولقد دخلت على الفتاة الخدر.. في اليوم المطير

قالت: علامك[1]؟ ما تبي[2] ... منا.. خمير.. أم فطير؟
قلت: ادهني ساقي.. ... فقد أزرى بها طول المسير
وتنشدت مني الحكاية.. ... قلت: موضوعي قصير
السندوتش.. اليوم.. مو ... ضا.. للصغير.. وللكبير
شقفا من العيش المقمر ... بينها النزر اليسير
جبناً بملح.. بين خص ... .. أو بزبدا.. كالحرير
كالفن في ركن الجرايد ... ـ سلق بيض ـ أو شعير
أو كالغنا.. خطفا من ... الكلمات.. في السوق الصغير
حتى الموظف.. بين ... أوراق المعاملة الكثير
تكفيه آخر صفحة.. ... فيها تآشير المدير!

* * *

وبعد هذا الفاصل غير الموسيقى نعود لما كنا فيه.. من أننا كنا نستطيع أن نروي سندوتشياً حكاية هذا الجبل الذي صار سهلاً.. في سطور معدودات.. معلقة في عمود أو نصف العمود من صفحة أو ركن اليوميات.. كأن نقول مثلاً عنه.. أنه جبل كان به طريق للدواب يسلكه الناس بالصيف لزيارة الطائف، وأصبح طريقاً يومياً للسيارات وللناس مسفلتاً.. وبه كبارى.. أي جسور.. وفيه المعسل يقف عنده الركاب للاطمئنان على أن الدنيا بخير، وأن الماء الحلو.. موجود وبهذا الأسلوب التلغرافي الموجز نكون قد سلكنا طريق سيدنا الفقيه الذي أجاب حين أريد

(١) ما بِك.
(٢) ماذا تريد.

إشغاله بالرواية وبالكلام عن موالاة الأكل وتتابع ازدراد اللقمات الكبيرة من كل صنف من أصناف المائدة دون رحمة.. وقد سأله أحد الخبثاء.. ما هي قصة سيدنا يوسف.. يا سيدنا؟ فلم ينقطع عن الأكل.. بل أجاب في سرعة بديهية.. وبإيجاز يحسد عليه.. ولد ضاع من "أبوه" والتقاه..

ومن المناسب.. لتحقيق بعض فصول التاريخ الأدبي الحديث أن نذكر أن أول من أطلق تعبير ـ الأسلوب التلغرافي بمحيطنا العربي ـ رمزاً للإيجاز في الأسلوب، على أساس أن يجيء وافياً بالغرض، مصوراً للفكرة، خالياً من الزوايد، ومن الحشو، لا فضول فيه لفظياً ـ أو ذهنياً.. كان هو الأستاذ سلامه موسى، شأنه في هذا التعبير شانه في كلمة "الثقافة" وهنا الحرص منا على نسبة الأمر لصاحبه.. لم يأت لمجرّد الإنصاف وجدية التحقيق فحسب، وإنما بسبب ذكرى مدرسية ـ فقد كنا جماعة من الشبان المتأدبين تنقسم صفوفهم الأدبية إلى العقادزمية ـ وإلى الطحسنية ـ وإلى ما عداهما فروعاً من المدرستين الأدبيتين المشهورتين.. وصادف أن تحدانا أحدنا يوماً ما.. ببعض كتب سلامه موسى هذا.. فكان أبرز ما لفت نظرنا إليه دعوته الأدبية إلى مزايا الأسلوب التلغرافي ـ كما سماه ـ قتلاً مشروعاً لأسلوب العك والإطالة المضنية وقد شهدنا نوعاً من التعصب له.. فيما بعد ذلك التاريخ بزمن.. على يد الأخ الأستاذ حمزة شحاته.. فقد حافظ عليه دون حذافيره، حتى اللحظة الأخيرة لدخول الأستاذ زيدان من البوابة الرافعية الزرقاء.

(٢)
صيد الفيل

قلت.. لقد كان باستطاعتي أن أورد حكاية الجبل الذي صار سهلاً بأسلوب سيدنا الفقيه.. عن سيدنا يوسف.. أنه ولد ضاع من أبيه والتقاه.. ولكن في إيجاز كإيجاز سيادته بالنسبة لنا.. تيسيراً لشيوع الأسلوب التلغرافي بين الكتاب من جديد وتضييقاً لباب الرزق اليومي.. ومخالفة صريحة لطبيعتي في التصفية وفي التحتيل.. كما أن فيه إلجاماً لأقلامنا القابضة.. والدارجة على حالات الإسهال الكتابي المنتشرة في الأوساط الأدبية.. وبالأخص لدينا نحن الكهول من الأدباء بحكم السن وعدم القدرة على الإمساك.. وعن الثرثرة والتمطيط.. تزجية لفراغ.. أو تسلية لأحفاد.. كما أنني مجبر لانتهاج هذا الطريق الطويل في سرد حكايتي عن الجبل.. لأنني معجب إلى حدِّ الغرام الذاتي.. بالطريقة الألمانية في صيد الفيل.. وخلاصتها كما تعيها الذاكرة كالآتي:

تخيل أحدهم أساليب بعض الأمم المصورة لطريقتهم في الحياة.. عندما يتهيَّأ فرد من أفرادها للخروج من المدينة لصيد الفيل.. فشرح طرائقهم بالنسبة لأجناسهم.. ومع شيء من التوشية منا وحذف ما لا بد من حذفه لعدم ملاءمته الجوية لطقسنا العام قال:

الإيطالي: سيقوم عندما يقرر اصطياد الفيل.. بأخذ الماندولين.. وهي آلة موسيقية كما هو معلوم.. وكذلك اصطحاب فرشاة الرسم.. وقبل وبعد أي شيء.. برميل صغير من عصير نابولي.. وشيئاً من المكرونة الاسباجتي.

الإفرنسي: سيصطحب معه سكرتيرة سفره.. ومجلته اليومية.. ولحية مدببة ربى شعراتها لهذا الغرض بصورة خاصة وذلك تمهيداً للعودة بها مشعثة طويلة بها شعرات بيضاء غير ممشوطة للتدليل على ما لاقاه من أهوال.. على أن تكون معه قبل كل شيء أيضاً بعض زجاجات مفضوضة من ماء بلده..

الإنجليزي: سيأخذ علبة الطباق ـ ودستة منوعة من البايب ـ وكتاباً قديماً عن الأمم، مع أطلس جغرافي.. وورقاً حساساً لرسم خريطة مستوفية للأماكن الاستراتيجية هناك.. أي في مواطن صيد الفيل.. بالحيلة.

الألماني: أما الألماني فقبل خروجه فعلاً لصيد الفيل.. فسيعكف في غرفة خاصة ليكتب ستة مجلدات علمية بخط دقيق.. يقول عنها ـ إنها تمهيد ابتدائي.. لدراسة الفيل!

وهذا الأسلوب الألماني في روحه ومدلوله.. هو شاهدنا من هذه الرواية.. تمثيلاً موجزاً لما سيكون عليه أسلوبنا.. مع الاختصار القسري بقدر الإمكان كذلك.. في حكايتنا عن الجبل الذي صار سهلاً..

وبعد..

.. ففي يوم ما.. من عام ما.. وعدم التحديد هنا ضروري للتشويق للقيام بعملية معرفة السن.. من خلال الحوادث وظروفها.. على طريقة حاوريني يا طيطا..

وكنت قد أكملت دراستي بمدرسة الفلاح بجدة بفصلها الأخير الذي كان مقره بها حينذاك يسمى (القبة) طلبت من والدي أن أحج. . ولم أطلب شططاً بل كان طلبي هذا في حقيقته. . تنفيذاً لعادة الآباء في الأعوام السابقة حيث درجوا على الحرص على تأدية أبنائهم حجة فرضهم بمجرّد بلوغهم سن الرشد. . ولما كانت الحمير حينذاك ـ أعز الله القارئين ـ من بين وسائط النقل الدابي أسرعها فقد كنت عصر ذلك اليوم الما. . من العام الما. . راكباً بالطول حيناً. . وبالعرض أحياناً. . أحد بهائم العم "الحتحوت". . وكان الحتحوت هذا. . حماراً ـ بتشديد الميم ـ شهيراً في زمانه. . حتى لتضارع شهرته آنذاك. . شهرة أكبر أجنس للسيارات اليوم. . فقد كان لدى المرحوم أنواع. . وموديلات مختلفة من الحمير الأصيلة في حميرتها ـ والمعروفة بأسمائها المتداولة. . ومن ضمنها الأبجر، البرق، البطران. والمعادلة تماماً. . تماماً. . في الشهرة والسرعة وقتها. . للمرسيدس والموستانق والرامبلر، والإمبريال والفولفو الآن. .

وخرجنا ـ ضمن بقية ركاب حمير الحتحوت. . من باب مكة والرجل يسعى على قدميه إكراماً لنا من مركز شيخ الحمارة أمام زاوية المغربي الباقية حتى الآن من ناحيتها الشرقية إلى أن تجاوزنا البوابة الوسطى. . وقد عاد من أمام مقبرة الأسد بعد أن أوصى علينا. . وعلى البهائم كتعبيره ـ العقبة! ـ والعقبة حمار فوقه رجل ينتدبه صاحب الحمير نيابة عنه. . ليكون في المؤخرة لتعهد البهائم. . ثم الركاب ويلوح لي من حركات الكلمة أنها عربية قحة يأتي تصريفها من لفظة العقب. . وهو المؤخرة. . من القدم. . أو من أي شيء.

وهناك نوع من التداخل العقبي بين الحمار وراكبه فكلمة العقبة تطلق

على الحمار.. والحمار ـ غطرسة من الركاب على من يخدمهم واستخفافاً بشأنه في المساواة في التسمية بين الراكب والمركوب.

وراكب الحمار.. يلتذّ بالمراحل الأولى من سيره.. حتى إذا طال المشوار ابتدأ بحكم المشي الروتيني يتململ.. ثم لا يلبث بعد أن تبدأ بوادر التسلخ ـ أن يحن إلى الراحة بعض الوقت ـ ومن معرفة هذه الحقيقة البسيطة فيما يظهر نشأت فكرة ـ أو مشاريع فتح المقاهي على طول طريق مكة ـ جدة ابتداء من الرغامة حتى مدخل أم القرى.. ولكل مقهى اسمه المشهور حينذاك.. وكنت في بداية المسير أحب الراكبين إلى استمرار السير.. ولكن بعد أن ذقت حلاوة الراحة في المقهى لبعض الوقت.. أصبحت أول المتطلعين إلى نور المقهى يبدو خافتاً ضئيلاً كحلم من أحلام اليقظة.. في أول الليل..

وهكذا تتابع السفر بنشاط جديد ـ بعد استراحة طويلة ـ في استراحة بحرة ـ وكانت تعتبر المحطة الرئيسية الكبرى ـ لوقوعها في منتصف الدرب تقريباً.. أو أنها بالتعبير المرادف العصري الرشيق.. الرست هاوس.. الوحيد..

وقد حدث ـ لكيلا أنسى ـ أثناء سيرنا وقبيل وصولنا إلى بحرة حادث عرضي بسيط ـ لكنه جدير بالإشارة ـ وهو أن الركب لم يلاحظ وجود ـ العقبة ـ وصاحبه وراءنا فقد انقطع صوت غنائه.. فتوقفنا بإشارة من راكب أفخم حمار، لاستطلاع الخبر ـ وعاد بعضنا ـ ورجع بعد قليل ومعه الرجل.. وفهمنا أن البردعة قد تزحلقت ـ وسقط الراكب عقب نعاسه ـ نتيجة إرهاقه.. فهو يذهب إلى مكة ويعود يومياً إلى جدة.. تقريباً فأسعف بما يجب.. وتلك إشارة لها خطرها في باب المقارنة بما

يحدث الآن لجماعة من السيارات تبنشر الأخيرة منها وتعود أقوى السيارات وتنشط البقية لإسعاف السائق ومساعدته في تركيب البنشر.. وهكذا، فلا جديد.. في الليل.. أو تحت الشمس!

(٣)

يا رويكب. . !

وجنوحاً إلى عدم الإسهاب!. . فقد كانت الرحلة موفقة من كل الوجوه. . وسريعة في ذاتها. . وذلك لعدم قيامنا بعمل دراسة طويلة الأجل في التخطيط للرحلة مخالفين بقرارنا هذا ما رآه أحد الركاب. . وخالفته الأغلبية الساحقة ـ فوصلنا بفضل ـ الدعم ـ كتعبير العقبة بعد أن نشط. . إلى مشارف أم القرى. . في مطلع الفجر. . وهذا في حدٍّ ذاته يعطيك فكرة عن نتائج الدعم ـ أي الإقدام ـ وأنك بمقدار ما تبتعد عن أن تكون زمنياً تستطيع أن تختصر المسافة والأزمان وأن تلوي رقبة التاريخ ليكون طوع أمرك سواء كان هذا الأمر رحلة من جدة إلى مكة أم هو رحلة في طريق العلا والمجد. .

ولقد كانت نتيجة الرحلة الحمارية الخاطفة وإن استمرّت لليلة بطولها تقريباً مع أخذ قسط من صفارى الشمس وقت خروجنا من جدة. . كانت هذه النتيجة على ظهر الأبجر. . والبرق. . والبطران وسواهم تصلبات مؤلمة في الساقين. . وتسلخات واضحة في الفخذين وتقوساً في الظهر شكل انحناءة جسدية رشيقة. . بالإضافة إلى فشخ واسع في السير. . يزول كل ذلك إن شاء الله. . بالنسبة للشباب. . بعد ليال من "التمريخ" أي

المساج المتواصل لما يذكر من أعضاء الجسد العضلية. ولما لا يذكر من الأعضاء الرقيقة اللينة.. من ذوات الحشمة والستر.. أما بالنسبة للشيوخ فتمتد آثارها إلى شهور بعد الحج.

وأنا مضطر هنا لوصف ما سلف من آثار ركوب الحمير.. حتى تعلم نابتة اليوم وناشئته.. وشبابنا ما كان يقاسيه أسلافهم من مواصلات الأمس.. ليشكروا المولى جلّ وعلا.. على ما تهيأ لهم من المواصلات الحديثة لا ضرر منها بصرف النظر عن الجيوب، على الأجساد.

ولا عبرة طبعاً في المواصلات الحديثة بما تسجله حوادث الموت والإصابات في حالات التصادم بين السيارات ـ مثلاً ـ فإن مرد ذلك كما تؤكّد محاضر التحقيق إلى السرعة الجنونية.. وإلى ما تدل عليه بعض حالات الاستكناه.. كما أن حوادث الموت بالسيارات عالمياً.. أقل بكثير من حوادث الوفاة بين جدران البيوت فضلاً عن أن أدوات إزهاق الأرواح كلها كالسيف وسواه قديمة جداً.. مما أضطر الشاعر العربي القديم.. تخفيفاً لأثر الموت به أن يقول:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تعددت الأسباب والموت واحد!

والشاعر صادق إلى حدٍّ كبير.. فقد سمعت في نفس ذلك العام الذي أديت فيه فريضة الحج ـ أو حجة فرضي كما كنا نقول ـ أن إحدى جاراتنا في العلوي حين نشب بينها وبين زوجها خصام بسبب الغيرة، لما علمت بأنه مَلَّك ـ ولم يدخل ـ على غيرها.. ضربته بتاسومة رقيقة ـ والتاسومة نوع من الأحذية النسائية ـ فكان أن توفي بسبب هذا الصفع الناعم.. بحذاء.. لا بسيف.. أو في حالة تصادم شنيع.

ونعود ـ بعد هذه الاستطرادة الإرشادية والإعلامية ـ لما انقطع من

حديث.. عن أثر الرحلة من جدة إلى مكة موقنا من تقدير الجيل الجديد للنعمة الكبرى تسبغها على الجميع مواصلات اليوم.. بالقياس إلى ركوب الدواب التي كانت أسرعها الحمير.. حينذاك.

وهكذا.. فبعد استراحة حوالي يومين في مكة مضيا بين طواف.. طليعي حديث وكتابة جواب الوصول كما كان يسمى.. لطمأنينة العائلة في جدة عن وصولنا بالسلامة مع إغفالي عمداً وضع كلمة "بدوح" كتابة.. والرقم الخرافي المبارك على الظرف كما كان متبعاً لضمان وصوله إليها.. دليل تحرر فكري.. طليعي حديث.. فقد باشرنا في ترتيب الطلوع إلى عرفات واستقر الرأي.. دون تداول مرتب فيه.. أن أخف المواصلات لعرفات بالنسبة للزحام وحوادثه.. استعمال يا رويكب.. ويا رويكب.. في الشائع تاريخياً نداء معروف، آنذاك لطالب الركوب.. وهو كما لا يحمد التنويه هنا عنه.. تصغير لكلمة راكب.. أي يا من تريد الركوب. ومرد التصغير فيه كما يلوح لي التحبيب والدحلسة لاستجلاب أكبر عدد من الركاب أي الحجاج.

أما نفس المركوب.. الذي غلب عليه اسم يا رويكب نفسه ـ فهو في مجموع النداءات عليه.. نكرات من الحمير الريفية القميئة يتصيد بها إخواننا البدو، وبالأخص الوافدين موسمياً من ضواحي الطائف وقراه، الحجاج من الخارج والداخل من أمثالنا.. كما يتصيدون الجراد بالضبط في موسم الأمطار، ومن الغريب أن أولئك اليارويكب من الحمير الريفية القميئة تشبه الجراد في ضآلة حجمها وخصائصها الجسدية الضامرة بالنسبة للحمير البلدية الفارهة الأجساد والوسيمة المناظر.

ومع أنها خفيفة الحركة.. وكثيرة المروق في الصفوف والزوغان

بينها فإنها معرضة دائماً للسقوط بذواتها وبركابها معاً ـ كلما زاحمتها أخواتها من ذوات الأربع ـ أو حينما كانت تتوه بين قوافل الجمال عليها الشقادف والشبارى والكجاوات والهوادج . .

وأطرف ما في موضوعها . . أنها في نفس الوقت الذي تسقط فيه يختفي صاحبها الحمار بين الزحام ـ كأنما هناك اتفاق سابق بينها وبين صاحبها على أنه لا يلبث بعد ذلك أن ينتصب واقفاً أمام الراكب الذي سقط به حماره فساعد نفسه بنفس واستعاد مقامه وهيئته بالركوب من جديد على طريقة (هلب يور سلف) أي ساعد نفسك .

كما كانت السمة البارزة في حمارة هذا النوع ـ يا رويكب ـ إننا لا نجدهم في وقت الحاجة إليهم ـ كالسقوط مثلاً ـ وإنما يظهرون لك من وسط الزحام . . قبيل أوقات الاستراحة المقررة بإحدى المقاهي لمشاركتك شرب الشاي . . أو تناول شيء من الزاد الحصري الخفيف .

وكانت لهم لازمة ظريفة في المواقف النهائية الحاسمة . . فهم ينادونك أثناء الطريق إلى عرفات بيا حاج . . وبيا . . ويا ها . . أنت يشيخ . . ولكن ما تكاد تصل إلى غايتك . . حتى يستحيل النداء إلى كلمة ـ يا عميمى! ـ وعميمى طبعاً تصغير لفظة ـ عمي ـ يقولونها للتقرب ولإرضاء الغرور . وإرخاء الأعصاب . وذلك تمهيداً نفسياً مرتباً لأن يضيفوا على الأجرة المقررة والمتفق عليها بعد استلامها في حينها . . مبلغاً إضافياً باسم شرب القهوة على حساب عميمهم الراكب . . ولا يتركونه إلا بعد استلامه . . ومبلغ شرب القهوة هذا يعادل اليوم بالضبط الإضافة الخاصة على مبلغ العشرة بالمائة بالعصر الحديث يضاف باسم خدمة على فاتورة الحساب في الفندق، وفي الكازينو . . والمطعم . . فهو يؤخذ مكرراً بعد

تسديد الفاتورة المشتملة على الأصل بسيف الحياء نقداً مستقلاً من كل زبون حسبما تجود به نفسه فكما يعمد الجرسون بعد أو حين تسديد الحساب إلى ندائك بأحب الأسماء إليك وأفخمها مستر.. مسيو اكسلانس.. وإلى تمسيح آثار المائدة أمامك وإلى بقية الحركات الجرسونية.. والنمر المتداولة عالمياً بالتلقي والاصطلاح.. يعمد هؤلاء الحمارة إلى ندائك بيا عميمى وما شابه.. وعليه، فلا فارق إطلاقاً بين ما كان عليه أسلوب الحمار في الموسم سابقاً في بلادنا وبين الأسلوب العصري بعد تسديد الحساب الأصلي والسرفيس في تقاضي البقشيش الخاص.

ومرّة أخرى يستطيع من كان يدفع بعد سقوطه من حماره ووصوله لقصده، ومن يدفع بعد إهمال طويل من الجرسون.. وحضوره في اللحظة الحساسة الحاسمة حين تسديد الفاتورة أن يقول كلّ منهما للآخر.. لا جديد في تحت.. أو من فوق..

(٤)
الحُسْكُلْ

وعلى طريقة ما علينا من ذلك.. فإننا بعد أن وصلنا إلى عرفات.. وأدينا الحج ـ فالحج عرفة ـ ونزلنا إلى مزدلفة.. ثم مِنى ثم على حد قول الشاعر:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا.. وأعطينا الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

* * *

فقد أخذت وأعطيت الأحاديث مع الوالد.. وأخيراً سألته في أدب وحب وشوق أن نصعد من منى رأساً إلى الطائف بالطريق القصير المعروف من اليارويكب.. وهو طريق عرفات، فشداد فالكر فجبل كرا.. لأرى هذا الجبل الذي صار سهلاً.

الجبل الذي كنت أحلم دائماً بصعوده.. تشبهاً ببعض الرحالين الأجانب الذين كنت أقرأ لهم وعنهم صبياً وتلميذاً في فراغي أيام دراستي وأثنائها عن قيامهم برحلات جبلية فيها المغامرة.. واللّذة.. والشعور بالكبرياء.. وفي كشف المجهول.. ومعاناة الصعاب، وركوب الجبال..

ومما حفلت به سير مغامراتهم المتعلقة بصعود شوامخ الجبال المشهورة في بلادهم.

واستطعت في النهاية بشيء من ملق الفتيان المحبوب لذويهم، ومن إدلالي بحيازتي الشهادة النهائية ونجاح تجربتي أستاذاً ناشئاً مع قيامي بواجب التلمذة، في نفس الوقت، كعادة الفلاح حينذاك أن أستميل الوالد الطيب وأنت تعرف الوالد كما يقول أخونا حسن قزاز كركزة له معروفة عنه فتفضل أطال الله حياته الغالية.. وأجابني إلى طلبي مضيفاً تعليلاً وهو انتهاء زحمة الحج في الأيام التي نقضيها هناك فالحج ثقيل هذا العام وما أن أخذت الموافقة منه حتى طلبت من القهوجي برادا شرطت أن يكون حسابه من مدخري البسيط الخاص ـ على حسابي.. احتفالاً بتحقيق غرضي..

وبعد ضمان الموافقة والاحتفال.. بدأنا تواً في التنقيب بأسلوب اكتشاف آبار الزيت في جاهليته بأمريكا. فبعد تجهيز اللوازم الخفيفة باشرنا عملية اختيار الحمار الطيب والحمير الأصلية.. فقصدنا بذلك سوق العرب.

فقد كان من عادة بني سفيان أصحاب (يا رويكب) في الحج.. أن يفرغوا في اليوم الثاني والثالث من أيام منى بهذا السوق جميع ما في حساكلهم.. وقبل أن أذهل فإن الحسكل بضم الحاء المهملة والكاف وسكون السين المتوسطة بينهما.. ونطق اللام بالسكون لتكون لام فوقها سكون "الـ" وذلك على طريقة الكاتبين الالمعيين: عبد العزيز الرفاعي وعبد الله مناع في تسجيل نطق بعض الكلمات بالشد والضمة.. وبقية الحركات إياها.. الحسكل: كيس جلدي ذو عراوي تنتظمها سيور جلدية

للفتح والإغلاق.. مخصص لحفظ النقود.. ويعلق في العنق الكريم.. بعكس محفظة النقود الحديثة ومقرها الآن الجيب الأمامي من الثوب.. والجيب الخلفي من "التراوزر" أي البنطلون.. حسب ترجمة المستشرق المعروف المستر براد بأسلوب شرح الماء.. بالماء!

ولقد كان معظم ما تذهب فيه نقود أولئك المواطنين القادمين وراء حمرهم.. في أيام مِنى، بعد قضاء الميرة من غذاء وكساء، ما يسمونه "الفرِّيحة" بتشديد الراء المكسورة.. من الفرح.. وهي عبارة عن اللوز، والحمص، والفصفص والفشار، والحلوى الحمصية، أيضاً.. بالإضافة إلى بعض الخرز الملوّن.. يزخر بكل تلك الأصناف "سوق العرب" في مِنى..

وسوق العرب في حينه بمِنى.. من أشهر أسواق الحجاج عامة ـ لا العرب وحدهم.. لما يباع مما يعرض فيه من شتى الحاصلات.. ومن أعجب أنواع الصناعات المحلية.. المخالفة كليا لما كان يعرض "عكاظ" من آراء، وأفكار، وشعر، وخيال.

ومن طرفي سوق العرب وعكاظ الكبيرين اليوم والأمس تستطيع أن تدرك كيف طغت حاجات المعدة العاجلة على مطالب الروح الخالدة.. ويمكنك أن تعتبر هذا التغاير بين التجارة المادية بالأغراض الدنيوية.. والتجارة الأدبية بالمعاني والصور والخيالات سبباً من أسباب رجوع العرب القهقرى في الصف الأممي الطويل.. وباختصار.. فقد ذهبنا إلى سوق العرب.. واخترنا الحمَّار واسمه محمد الجِدابي، واتفقنا معه على الرحلة إلى الطائف مرجعاً إلى مكة.. فقد رأينا أن من باب الاحتياط جعل الاتفاق مرجعاً.. لضمان وجود الركوبة في موعدها وللتخفيض الناشئ عن

ذلك. تماماً كما نفعل اليوم للتوفير في قطع تذاكر الطائرات ذهاباً وإياباً مما يدلك على أن اللؤم الفكري في مواضيع الحساب قديماً وحديثاً واحد لم يتبدل جوهره وإن تبدل نوع الممارسة فيه.

وعلى ذلك، فقد سمينا المبلغ الأصلي أجرة للحمارين وأضفنا ـ للإغراء ـ بعض غمزات العيون التي ينفرد قومنا بها في لغة الغزل.. وأدرك فوراً وبذكاء كما بدا من موافقته أننا عنينا أن يكون أكله وشربه وقهوته، ودخان غليونه الأخضر.. وبرطيله ـ أي بخشيشه ـ علينا طيلة الرحلة باستثناء البرطيل فإن حسابه المؤخّر سيكون دفعاً بعد العودة ـ بالسلامة إلى مكة المكرّمة.

وهكذا.. في يوم من أيام مِنى المباركة ـ تحقق حلم الصغير الكبير في صعود جبل كرا.. كرائد من رواد الجبال الوطنية.. وكان هذا القرار التاريخي بالنسبة لي.. في صباح اليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة في عام ما.. من أحد الأعوام الهجرية.. المجهولة النسب والميلاد في عالم الأرقام وهكذا.. أيضاً.. ألقى الوالد على عاتقي الصغير مهمّة تحضير الزوادة من بقايا مدخراتنا الموسوقة من جدة أصلاً باسم الحج فتوليت نشطاً فرز البقية الباقية من الكحك والمعمول والغريبة، والشابوراء، أم الكمون وحبة البركة، والجبن والزيتون مع إحكام ربط بقجة العدس الصعيدي، والرز المزه، وصرر الفلفل الأسود والملح ـ وأخيراً السكر والشاهي.. وقمت فوراً بتوزيع الزوائد مما لم يعد صالحاً بعد انقضاء الحج لأن يكون ضمن زادنا المرتب الخفيف إلى الرحلة الجديدة ودخول مدينة الطائف بعد استهلاك آخر دفعة من موجوداتنا باعتبار إمكان التجديد وشراء ما يلزم.

وتحدد وقت السفر بعصر هذا اليوم.. وبعد أداء الصلاة جماعة وتم الأمر سريعاً بعد عقد هيئة مكوّنة من الوالد رئيساً علي والجدابي الكبير رئيساً ثانياً على أخيه الجدابي الصغير.. وبعضويتي وعضوية شقيق الحمار الصامتة كمستمعين لهما حق التصفيق والاستحسان والتهليل وترديد آمين لما يقال.. دون تجاوز حدودهما في لفت نظر.. أو اقتراح أو تعديل.. وهكذا أضحينا على سفر.. سفر مرغوب مجهول.. لرحلة تاريخية هامة..!

(٥)

حج وبيع مسابح

وهكذا.. وبعد عصر الثالث عشر من شهر ذي الحجة.. ومن قلب منى. بعيداً جداً عن مقر الشيطان الكبير وبجوار الشيطان الصغير صارت تتهادى ببطء ورهبة في البداية، ثم بربع واستخفاف قافلتنا المكوّنة من الوالد وولده.. وكلاهما له حماره الخاص..و من جماعة الحمارة الذي أتموا حجهم التقليدي.. وبلغوا مناهم.. طلبوا من السيد الكريم أعطاهم.. كما كانت تملأ أسماعنا فنطرب لها هذه الجملة وأمثالها تترنّم بها حناجر الباعة والوطنيين في أعقاب كل موسم.. توديعاً للحجاج من جميع الألوان والأجناس..

وعلى فكرة.. فإننا نستطيع هنا أن نورد كفكرة لليوم.. على أن تكون خاصة وموجهة لفنانينا الناشئين.. فما هو رأيهم يا ترى لو تصدّى أحدهم.. وتصيد تلك النداءات الموسمية القديمة للباعة وعمد إلى بعض الآلات الموسيقية.. وحشد لها رهطاً من بطانته.. وأتمّ تلحينها وأداءها بأصوات محلية من موجودات قسم الفولكلور الشعبي.. ثم توسّع فوراً في المشروع فعبأها في أسطوانات بأحد استوديوهات بيروت.. وعلى الطريقة البيروتية إياها.

إنه بإنجاز ما خطر لنا عفواً ودون تكلّف يكون قد أنجز بما اقترحناه عملاً بلدياً ضخماً سيدخل به التاريخ من بعض أبوابه الخاصة بعالم الفن ـ للفن ـ والبلد ـ للبلد. ويكون قد استفاد هو وبطانته مادياً بما يدره وارد هذه الأسطوانات من أريل.. ربحاً حلالاً مشروعاً ـ تماماً على طريقة: حج وبيع مسابح.

إنني لأتخيل على طريقة الأب عزيز ضيا عفا الله عنه.. إقبال أفواج الحجاج من وفود بيت الله الحرام على تلك التسجيلات.. اقتناء وحفظاً للذكرى لحجهم.. بل لا أبالغ إذا تخيلت أنه سيحصل على دخل فني منظور وغير منظور من بعض الإذاعات العربية وغير العربية التي سترددها في أيام الحج للمتخلفين عنه بما في هؤلاء وأولئك أهالي المملكة نفسها في أيام الخليف مستعيضين بها عن أغاني أسمهان وليلى مراد الخاصة بالحج فإن صوتي هاتين الفنانتين القديمتين وسواهما لا يبلغان في إيمانهما غير النظيف ما يبلغه فنانونا أبناء البلد نفسها.

إنها خبطة فكرية.. واقتراح معقول.. وهي بعد وقبل صفقة تجارية تضمن لنا دخلاً شعبياً.. وتطرد ببساطة تامة مبدأ التطفل على مائدتنا الدسمة من أتباعها الدخلاء..كما أنها تحقيق وتنفيذ عملي للمثل القديم الدارج ـ جحا أولى بلحم ثوره.

ومعذرة لهذا الاستطراد.. فإن حماسة الوطنية قد ركبتني قسراً من فروة شعر الرأس حتى أخمص القدم.. فلنهتبلها فرصة واقتراحاً ـ ويلاحظ هنا.. للتاريخ أن كلمتي الاهتبال والأخمص هما من تسجيلات الأستاذ الشيخ أحمد السباعي وأولياته المحفوظ له بالتسامع دون تسجيل الحق الأدبي له ـ فيهما بالطبع.

وأعود ـ في موضوعنا لما سبق للضبط وللربط ـ فأذكر ثانية أن قافلتنا المكوّنة من سيدي الوالد ومني ومن جماعة الحمارة العائدين قد شقت طريقها في قلب منى متجهة إلى درب عرفات حيث نقصد أنا والوالد لغايتنا المرسومة.. وحيث أصبح هؤلاء الحمارة القافلين.. وقد عادوا بجر الحقائب بعد أن كانوا خفافها.. يذوبون شوقاً وفرحة للقاء أهاليهم بالأودية المنتشرة فوق هام الجبل العالي.. جبل كرا المحب المحبوب..

وانتظم الركب خارج مِنى، حتى إذا أمسى في وادي النار ومحسر أصبحت الحمير ظلالاً وأشباحاً شعيرية تتراقص أماميا وفي اندفاع على نغمات الحدري الرقيق من ركابها، حتى لقد أصبح ركوبها منا نوعاً فطرياً من أنواع الرقص العصري على اختلاف كبير طبعاً في الكيفية والقواعد بينها وبين رقصة التانجو ـ على سبيل المثال!

أشهد صادقاً كذلك أن الركاب أنفسهم كانوا في حالة انسجام روحية خيالية.. تجاوزت نطاق الماديات فعطيط الله الحمَّار الكهل كان يرسل "المجرور" من قلبه وهو يتصور بعد غيبته بالحج جلسته العائلية بين زوجته وأولاده في دفء منزله بالمربعة الصفراء.. وبينهما منشورات من الفريحة التي جلبها لهم من حمص وفشار وتوابعها يتناقلونها في التذاذ، تناقلهم الأحاديث يسردها الوالد عما صادفه في الحج من مفارقات وحوادث عن الحاج السليماني ذي الذقن المتجاوزة في إسبالها صرة بطنه، وطعم الشباتي الذي ذاقه منه مكتفياً الحاج بتقديمه الشباتي له نائباً مناب البخشيش أريلا أو هللات، أو يروي لهم عن الجاوي الرشيق الحركة رشاقة الكربؤ الذي أتاهم ببقايا منه للذكرى والاستذاقة صنف من آكال

سكان جزر الهند الشرقية التي لا يعرف العطيط الله منها إلا كلمة جاوى بصرف النظر عما إذا جاء تخيله الجغرافي لها صحيحاً.. فاعتبرها.. جزيرة كما هي.. أو رآها بعين خياله وادياً كوادي الغديرين.. وهنا يحلو له أن يفاجئهم برؤية عملة جديدة لا يستعملونها في الجبل ولا في الوادي بالطبع، ولا في الطائف نفسها.. ويخرج لهم "الكتب" بتشديد التاء المكسورة وسكون الباء.. ينتقل من كف إلى كف.. ويخضع طويلاً للفحص من بصر.. وبصر..

وهناك الحَمَّار سالم الشاب الذي سرح مع خياله الجامح.. يتصور فرحة ابنة عمّه.. وخطيبته مزنه.. وقد فاجأها مع الفجر.. لدى البئر.. وقد وضعت القربة جانباً دون أن تملأها.. لتتملّى من منظره وقد أسمرّ لونه قليلاً من سموم مكة.. وشموس الحج.. ولتطلق صيحة الفرح بما قدمه لها من عقود الخرز تتصورها عقوداً من لآلئ وجمان غالية الثمن تضعها على أعلى صدرها للقياس التقريبي.. ثم ترسل إليه نظرة طويلة حانية تحملها معنى الشكر لا تطمس لآلائه ألفاظ دارجة.. وتؤكد بها إصرارها على الوفاء لوعده وعهده.

فلا يكاد سالم يصل إلى هذه النقطة من تصوراته حتى يندفع في التغني "بفرعي" عاطفي لذيذ يتموّج به صوته العميق الأصيل عمق وأصالة الرجولة والبراءة في عاطفته المكبوتة.. وفي حبه الصادق..

وهناك ـ غير الكهل عطيط الله ـ والشاب سالم من الرجال رفقاء الطريق من الحمارة الكاد حيث طيلة العام في زراعتهم وبالموسم لكراء حمرهم ـ يا رويكب ـ على الحجاج.

وكان بِودِّي أن أصور حالة الانسجام لكل فرد منهم ـ لولا خشية

المباعدة بين ما نحن فيه من مسايرة للرحلة ـ وما يشط بنا لمسافات شعرية بعيدة.. ولا أستثنى من تلك الحالة الوالد نفسه، ولا نفسي وإن كان كل منا هو أو أنا في دور المستمع لما ترسله بالليل حناجر هؤلاء الحمارة العائدين إلى أهليهم وديارهم، والناعمين بما توفره لهم من كسب حلال بعد جهد مرهق ـ شاق ـ وعنيف.

ولقد واصلنا السير على هذا المنوال اللطيف.. حتى تجاوزنا عرفات ثم وصلنا أخيراً إلى "الكر" وهو سفح جبل كرا.. كما هو معلوم. وكانت هناك قديماً به بضعة أرضام من الحجارة.. يسمونها القهاوي والمنازل فاختار الوالد لي وله بعد وشوشة مع القهوجي وتفاهم خاص إحدى تلك المنازل بل أجملها.. حيث انطرحنا حالاً.. من الإعياء على أرضها العارية، إلا من بقايا خصفة قديمة وضع كل منا فراشه عليها وهو عبارة عن لحاف مبيت بقماش من نوع الساتان ومخدتين لهما نفس الشعار..

وانطرحنا.. متقابلين.. متجاورين في انتظار العشاء.. وقد أخذ الوالد ليطرد عني النوم يسرد لي بعض ذكريات فتوته في جدة.. حينما كان في عرف أهل حارته أحد المشاكل في الحارة.. ولكن لتلك الذكريات مجال آخر.

(٦)

أكلة معدوس

وهنا.. أود أن أستأذن القارئ.. للبقاء معنا بالكر حيث كنا في انتظار العشاء، غير متجن عليه، فقد شرطت في بداية هذه الحكاية؛ حكاية الجبل الذي صار سهلاً، أنني سأذعن لمقتضيات الاستطراد ما بين حين وآخر ما قد يجعل الحكاية نفسها عبارة عن عبارات.. أو ذكريات من الاستطرادات الموصولة المتكررة. لا رابطة فيها بين لون ولون، أو نوع ونوع.. ولقد سرد عليَّ الوالد لطرد الكرى الذي يهاجمني في عنف وثقل ولئلا يفوتني العشاء.. بعضاً من ذكريات فتوته بصفته أحد المشاكلة في الحارة.. فقال: إنه نشأ نشأة خشنة لا تمتّ بصلة إلى ما نشأ عليه جيلنا.. حيث كان منقطعاً في أوقات فراغه ـ وما أكثرها ـ إلى تلقى فنون المطارحة، نوع من المصارعة الحديثة، باطاً بباط أو بباطين ـ على أيدي شبان أشد قوة وأعلى مراساً منه ـ ثم إلى التدريب العنيف على القشاع ـ واستعمال العصا ـ أي النبوت ـ في شتى أنواع استعمالاته.. مدنيا للمزمار.. وقشاع للمصاولة.. وكنسا للمضاربة في نطاقه الجدى الحامي والواسع بين أهالي حارة، وحارة.

وتلك كانت خلة الرجولة لأبناء الشعب من طبقته وما دونها وكانت

غالبية أبناء المدن الرئيسية من المملكة اليوم ـ وبالحجاز آنذاك ـ في جدة، ومكة، والمدينة بالذات من هاته الطبقات الممارسة لما مرّ لا يستثنى منها إلا طبقة أبناء الأتراك.. أو المتتركين من أبناء البلد المجاورين، من المهاجرين الراسبين بعد كل موسم حج.

وكانت المحلات ـ الحوائر ـ مدنا مستقلة داخل كل مدينة فإن لكل حارة حدودها المصطلح عليها بعد الحارات القديمة والتي انتهت بتقرير ضم زقاق جديد. أو برحة إلى المحلة الغالبة، ولا يجوز إطلاقاً لأهل أية محلة أن يتسامحوا في ضياع شبر من حدود محلاتهم.

ومن هنا نشأت أصول الوطنية الحاروية وجيش دفاع كل محلة من المشاكلة الممتازين.. رجالاً وكهولاً وشباناً، من أبناء العائلات ومن يلحق بهم من المواليد، أو من العبيد في درجة الأبناء في حسن المعاملة وفي المساواة في كثير مما يتمتع به الأبناء أنفسهم.. يتضاربون.. ويتهاوشون مع نظرائهم من أبناء المحلة الأخرى.. كلما اقتضت حالة معيّنة إلى قيام ـ الهوشة ـ كما كانوا يسمونها بسبب حادث تافه أو جلل ـ والتوافه في تاريخ الهوشات وأسبابها هو الغالب الأعم.

وعلى هذه القواعد وسواها من الفهم، أخذ الوالد يسرد ذكرياته في هذا الباب من المضاربات الفردية بين أولاد المحلة ذاتها.. ومن الهوشات الجماعية بين أبناء محلة وأخرى وباعتباره من فتيان العلوي ـ سوق جدة ـ ومن مشاكلة محلة اليمن فإن حوادث هوشاتهم تتم على نطاق متكرر واسع مع أبناء محلة المضلوم ـ المظلوم ـ وعلى نطاق ضيق غير متواتر مع أبناء حارة البحر التي تعتبر بوم الغارة الكبرى جزءاً أساسياً من محلة اليمن.

كما كانت الأمور نفسها تسير في الهوشات بين أهالي محلة الشام والمضلوم ـ ولكل من هاته المحلات حلفاء من أهالي محلات النزلة اليمانية ـ والرويسين الأعلى والأدنى وبنى مالك وسواها ـ ومن ذلك نستطيع أن نفهم للتاريخ أن في وسع من شاء من الباحثين على أضواء تكوين المحلات وحروبها الشعبية والحاروية وتفاصيلها الواسعة جداً. . وعلاقاتها المتنوعة أن يدرس الحالات الأممية في حروبها الغابرة عامة ـ وفي الحرب الكونية الأولى والثانية. . كنقاط ابتداء. . تماماً وبالضبط كما سلسل بعض الباحثين تاريخ الحروب ابتداء من غارات العشائر بسبب دلو. . فالقبائل، بسبب فرس أو بعير. . ومن هنا ـ فقد كانت ذكريات الوالد المسرودة عن الحارة وتاريخها ومشاكلتها ومشاكلها، ولم أستوف هنا بعضاً من كل، بل أن ما ذكرت أشبه كثيراً بشعرات من رؤوس أقلام، وفي هذا الباب وفيما ذكر الكفاية ولو مؤقتاً فيما يلوح لي. . وما أحس ذوقياً وجوب الوقوف عنده. . كما أحس الوالد نفسه، عندما عرف بأن العشاء على وشك الانتهاء، من طبخه.

وبالنسبة لعشائنا هذا في الكر. . أحب أن أقول أنه حين وصولنا هناك نحن وجماعة الحمارة العائدين. . لم يكن أمام جماعتنا الصغيرة الوالد وأنا والجدابين الكبير والصغير ـ أسوة بالبقية وكل منا على حسابه ـ أي مجال لاختيار نوع وجبة العشاء هذه. . فليس أمام كل منا تمشياً مع حيثية المكان ـ الكر ـ والمقهى والمكين ـ ونحن والحمارة وجوهما الشعري الأصيل إلا أن تكون الوجبة أكلة "المعدوس". . بحصاه!.

ولقد أكلناه كذلك ـ أي بحصاه ـ فعلا متلذذين ـ غير مشاركين للأسف ـ برؤية الأعمال الجليلة الهامة في تحضيره. . من إشعال

الحطب.. وتحضير القواعد المثلثة من الأحجار لوضع القدر عليها ـ فالقدر كما يقول المثل ما يقعد إلا على ثلاثة ـ فوضع القدر ـ وفوران الأرز والعدس صديقين متلازمين طيلة العمر.. مركبين تركيباً مزجياً.. ولد لهما هذا الاسم المعجب المطرب.. "المعدوس".. علماً بارزاً في عالم أكلاتنا الشعبية.. وخصوصاً أيام الغيم يتلبد في الجو.. دون نزول المطر.. فهو أي الغيم كالأمل العذب الباسم يلوح في حياة الفرد لاستساغتها على رجاء تحسن أحواله فيها.. أو هو كالعزاء بهذا الاعتبار السالف ذاته.

وربما جاء حب المعدوس والحنين إليه كلما ذكر لدينا حواضر وبوادي من اختلاسه كثيراً من الملامح والمشابه والمضامين للأمل.. وللعزاء.

أما في حين نزول المطر فعلاً على ـ ندرة نزوله ـ فالمعدوس غالباً وجبة كل دار ـ أو خدر.. وأذكر ـ بطريقة اللقط السريع ـ أننا عندما كنا موظفين بوزارة المالية بمكة المكرمة بمقرها بالعرضي كما تسميه.. وعندما كانت تغيم ـ أي السماء ـ يبتدئ أوتوماتيكياً طلب كل موظف السماح له بالخروج بانتحال أية علة أو سبب حتى ليبقى القسم عاملاً بموظفين أو ثلاثة على الأكثر ـ ويتضح فيما قبل وفيما بعد أن الجميع قد ذهبوا لتناول المعدوس في "المصافي" الصامح مثلاً وتناول المعدوس في الخلاء مما يعتد به في تاريخ مواطنينا.

فالمعدوس أكلة خلوية شعرية.. حتى في الليل ـ أمام اللهب الأحمر ـ من الحطب يتخلّل دخانه شعرات أذقان القائمين بعملية طبخه، وعلى ضوء القمر الساري، من جماعة الآكلين..

(٧)
مرابع الجمل.. ومراتع الغزلان

ولقد قال الجدابي الحَمَّار.. والعهدة عليه.. أن من بين تلك الحيوانات: الثعالب، والذئاب، والكلاب، والغيلان تمرح في اخاء.. وبدونه.. مع الغزلان والحمر الوحشية.. والأنعام.. وأخشى أن أذكر تتمة روايته وأسماء من ردد أسماءهم من الحيوانات الأخرى فأكون ملحقاً به في الاختراع والتنميق.. مع علمي التام بأن ناقل الكفر ليس بكافر..

وعلى كل حال ـ كما نقول دائماً ـ فقد كان من ضمن العبر والمعلومات والحقائق الجديرة بالذكر والتي كوناها وسردنا بعضها في هذا المجال.. أن الغناء الحدري والأهازيج الجماعية كما هي مظاهر سرور واغتباط.. وأداة تنشيط للمزارع أثناء تأدية عمله الشاق في حقله وسواه.. فإنها كذلك سلاح دفاعي محمود في تنفير الحيوانات المفترسة والحيوانات المؤذية أو المقلقة للراحة على الأقل.

وأن كثيراً من تلك الحيوانات وأهمها أصناف من الغزلان والحمر الوحشية وسواهما.. قد انقرض أو كاد في بلادنا لأسباب خارجة عن سياق استطراد حكايتنا اليوم.

وأنه قد آن الأوان جدياً لسن القوانين الحكومية الصارمة لحماية البقية الباقية من حيواناتنا الإقليمية.. فإن من المفارقات الشائنة أن يأتي اليوم الذي يقال فيه أنه لا يوجد جمل.. في بلاد الجمل.. ولا يوجد غزال.. في بلاد مرابع.. ومراتع الغزلان.. والآرام.

وهكذا كان.. فبعد أن تناولنا وجبتنا بالكر، الوالد وأنا مع جماعة الحمَّارة يداً بيد ولقمة بلقمة.. ذهبنا في رحلة أخرى.. رحلة نوم عميق، لذيذ الأحلام العدسية.. ومتنزهاتها السحرية.. ونومتنا هذه ـ وإن لم تكن طويلة في حساب الزمن والتاريخ.. إلاّ أنها هجعة مريحة منعشة بعد اليقظة للجسم وللذهن معاً.. فقد استيقظنا كذلك في أعقابها حيث قمنا بأداء صلاة الفجر في نشاط وابتهال، وخشوع، وأديناها صلاة حقيقية تمت في أداء ساذج، مقبول ـ بلا شك ـ لحرارته، ولصدقه، ولعمق مبناه ومعناه عند الله.

وكتقليد محبب ـ أو غير محبب.. للعبة المعروفة خارجياً باسم "نطة الإنجليزة".. والمشهورة داخلياً لدينا وفي الحارة.. كلعبة شعبية واسعة الانتشار قديماً بالأزقة والبرحات من مدننا المباركة باسم لعبة ـ يا مسانكا وديني وانكا ـ وأروح وجي عند النبي.. إلى آخر اللازمة المسجوعة الحلوة التي كان يرددها اللاعبون حين ممارسة هذه اللعبة.. كفرع واحد من فروع أخرى من ألعاب ساحاتنا الشعبية آنذاك مثل.. الكبت.. القال ـ وهو الجولف ـ دآنى نروه.. الإِنِني وسواها من ألعابنا المحلية البحتة والتي لا تفوتنا دعوة المسؤولين تأكيداً لما سبق منا إلى إحيائها بأسلوب عصري منسّق ـ على ألا يذهب بتسميتها الأحياء الجديدة.. والدوبلاج الحركي المضبوط..

أقول.. طال عمرك!.. كتقليد محبب لهذه اللعبة فإنني قبل أن أنسى ـ وكثيراً ما أنسى.. أرجو بالإذن أيضاً أن أسجل هنا وقبل مباشرة صعودنا للجبل من الكر أنه حصل حين عودتنا من الطائف إلى مكة وبعد نزولنا من كرا ومغادرتنا الكر على نفس حمارينا وبصحبة الجدابين الكبير والصغير.. وفي مسرانا ليلاً وكان الوقت ظلاماً دامساً.. إننا كنا نسمع عالياً وفي وضوح تام وقع الحوافر من ذواتها الهاربات من طريقنا تبتعد مؤقتاً لحين مرورنا عن الجادة المطروقة.

ولقد كنت أشعر فعلاً ببعض رهبة عندما أسمع تلك الأصوات وعندما قيل لي أنها وقع حوافر وأقدام وأظلاف حيوانات بعضها مفترس بالطبيعة وبالغريزة وبالفطرة.. وبعضها مفترس بحكم الجوع الكافر حين لا يجد مأكله السهل المعتاد.

ولقد كانت وسائل دفاعنا أمام تلك الحيوانات المتنوعة والمنتشرة أن يعمد الحمارون إلى رفع أصواتهم الجهورية بالغناء وقوامه الحدري وهو غناء ساذج وحلو.. ورقيق في أسماع بني آدم.. ولكنه بالنسبة لتلك الحيوانات إنذار مباشر مسموع.. بأننا.. هنا!..

ولا شك أنها ـ أي الحيوانات ـ تحسب حساب الجماعة المتكتلة صفاً واحداً.. فإن يد الله مع الجماعة.. وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية. فبسماعها الأصوات الجماعية الهازجة.. ورتابة وقع حوافر الحمير.. تفر هي.. لنسمع نحن وقع خطواتها الهاربة.

أما خط الدفاع الأصلي ضدها.. فإنه لم يكن من صنع أفواهنا بل من صنع الحجيج في عرفات.. فإن تلك الحيوانات المتجمّعة منها سرت أفواجها من الجبال والشعاب على طول وادي نعمان والأودية قبله وفي

جواره.. رغبة في التزوّد من البقية الباقية من مخلّفات الحج بعرفات.. بما في ذلك بقايا اللحوم المجهولة الهوية من بقايا الذبائح.. وسواها.. مما كفل درء الشر عن رواد هذا الطريق عقب الحج مباشرة.. بهذا البديل..

والمغزى من هذه الإشارة العابرة.. الإشارة إلى ما كان من توفر أصناف الحيوانات المنتشرة في باديتنا.. يومذاك.. حتى مجيء الوقت الذي بادت فيه إما بفعل الإبادة البشرية منا لها، أو الموت صبراً.. أو جوعاً لعدم وجود مخلّفات موسمية لموسم الحج بعرفات ومِنى.. بفضل تقدم وسائل النظافة والتطهير..

ومن المستحسن في رأيي للجهة المختصة عن نظافة الحج الآن أن تتخذ من هذه الواقعة التاريخية دليلاً ساطعاً على ذلك.

(٨)

قصيدة

ومع شعوري الواضح بثقل الدم في امتداد نفس هذا الاستطراد فإنني أحب ـ من باب العشم والمحبة ـ أن أعرج بصفة خاصة على موضوع الجمل ـ في بلاد الجمل ـ فاستعرض هنا.. مع استعراض عضلاتي الشعرية بعض ما قلته شعراً.. ونشرته جهراً.. بالأسلوب الفصيح والحلمنتيشي عن هذا المخلوق الرفيق.. الأليف بحياته وبتاريخه امتزج بحياتنا وبتاريخها الطويل العريق..

وأبدأ بمقتطفات من قصيدتي التي أسميتها.. أبا الصبر!.. وأولها:

يا أبا الصبر.. والصحارى بلاء	وابتلاء.. والصابرون قلائل
الليالي أضمرن حبك سراً	أبدياً.. بين الجوانح ماثل
والدراري أتلعن نحوك أعنا	ق دلال على الحنو دلائل
يتلامحن بالبصيص.. فيهدين خطاك	المسري.. الخفي.. ذوابل
والحصا.. والرمال عشن خدودا	لك بالموطئ الرقيق حوافل
يتناثرن غبطة. واختيالاً	بين عينيك كالعذارى جوافل

* * *

ومن أواسطها:

والغواني حين الوداع تجلّت ... واستقلت منك الظهور ذواهل

والمحبون بالهوادج هاموا ... أينما سرت بالهوادج راحل

يتواصون بالعصى من الصبر ... ويبكون دمنة ـ وحوائل

والمغاوير شاركوك لدى الذكر ... فخاراً بطيب ذكرك آهل

والمغاني تزوّدت بمغانيك ... وروحاتك استقمن.. قوافل

والصحارى دانت إلُيك حزوناً ... ملء حصبائها جوى ومقاتل

فتقحمتها.. مغاليق كون ... وتبينتها.. سرى ومجاهل!

يا أبا الصبر.. بكرة.. وقعوداً ... وبعيراً ـ وناقة ـ وحوامل

عشت في أرضنا مناخ رجاء ... ومطايا.. وبغية.. ومآمل

فتربعت في القديم عروشاً ... بين أجدادنا ترد الغوائل

وتمتّعت ما تمتعت بالعطف ... وبالذكر عاطراً.. غير خامل!..

* * *

وآخرها.. بعد المقارنة الطويلة بينه وبين السيارة:

يا أبا الصبر.. كيف مرّت بك الوحدة ... أتخفى بها السكون القاحل

وأثارت بك الشجون وأغرت ... بك سوط الذكرى صدى وهياكل!

يا أبا الصبر.. أيها العود.. ... والفرد.. وماضي الصحراء.. والركب حافل

عزّ ما تبتغيه.. قد فاتك الركب ... وضنت بالذكريات المحافل

فاقض أيامك القليلة حتى تنتهي ... بعدها سلالة زائل!!

* * *

وأعقب على قصيدة الجبل الفصيحة بنبذ من مونولوج عملناه في هذا المخلوق الصحراوي العربي الأصيل.. مؤكِّداً أن الكثير جداً من أبنائنا وأحفادنا من الجيل الصاعد لا يعرفون.. ما هو الجمل؟

وهذا ثقب معيب ـ وفجوة مهينة ـ ونقطة سوداء في تاريخ أبناء بلاد الجمل وقد أهدينا هذا المونولوج في حينه للأستاذ الأب عزيز ضيا.. تقديراً منا لجهله التام المطبق بالألفاظ البلدي:

الهوارى.. والشقادف.. كيف كانت ... ياعزيزي.. لست أدري.. لست أعلم!

قد سمعت اليوم بابا ... حين حاكى طنط زيزي

قال عن تلك الهواري ... إنها عود مسمسم

كان وسط البحر.. يجري ... ليعيد الحوت بدري!..

والشباري.. والشقادف؟ ... أبلا.. شوشو.. عيشه.. قالت:

إنها في روما شافت.. رسمها في كتالوج ... وضعوها فوق "شيء"..

* * *

حيوان.. كان يرعى.. في البراري

إنه.. إن انقلش، أي ثنك.. يدعى.. في اعتباري..

وات "كمل"؟؟ وازمينت يعني

يعني: إيش هو يا أكرم؟

قال أكرم حين برطم

يا ابن زمزم..

لست أدري..

لست أعلم!..

(٩)
أحجار وماء وقرود

أما بعد.. فبإشباع رغبتنا.. يا عباد الله ـ وبتحريك أعضائنا الهامدة.. بممارسة نطة الإنجليز ـ يمسانكا.. وديني وانكا.. في استطرادنا المكرور.. حيث بقينا طيلة هذا الوقت.. قضيناه في سرد بعض ذكريات الحارة.. وفي حكايات فرعية عن الحيوانات المنقرضة وعن سيدها بالنسبة لتاريخنا الجمل ـ أو أبى الصبر ـ فقد آن لنا أن نواصل السير في رحلتنا من الكر.. السفح إلى الكرا ـ الجبل والقمة..!

ففي صباح اليوم الثاني من مساء يوم الرحلة السابق.. بدأنا من الكر الرحلة الجديدة مع أفراد الركب العائدين لمنازلهم.. من سكان الوديان الواقعة فوق الجبل الأشم، أحدنا ـ وهو الوالد مع الركب على ظهر حماره الذي كان موزون الخطى ـ خبيراً بتجنّب المزالق والمهاوي باعتباره من خبراء الطريق إلى "الديرة" علماً بأن الجدابى الكبير حمَّارنا سائر بجانبه وربما جاءته الخبرة من وجود ابن الديرة الأصيل وراءه.. وإنما نسبت إليه عشما في استدرار أكبر قسط ممكن من جهده.. ونشاطه.

أما الثاني ـ وهو أنا ـ كفانا الله شرّ كلمة أنا ـ على حدِّ تعبير عمّتي يرحمها الله. فقد كنت بإعطائي حماري إجازة شخصية سائراً على متن

قدمي الحافيتين من أي فعل مجاراة لزميلي الأخ الأصغر للجدابي الحمَّار.. وتشيعاً لمبدأ المساواة والحرية والاخاء الذي كنت حديث العهد بمعرفته.. عن طريق روايات الجيب التي كان يقوم بتعريبها الأستاذ عمر عبد العزيز أمين.. ومعظمها حافل.. بل ومختص بحوادث الثورة الإفرنسية.. وهي روايات كنا نتبادلها بالزنابيل مع أصدقاء القراءة للمبادلة والمشاركة باعتبارها مالئات فراغنا الرهيب ومطالب دمائنا الفائرة آنذاك. ولعلَّ رخص أثمانها أولاً وتوفير بعض الأثمان وبطريق الإعارة.. ثانياً ـ دون الإيجارة ـ فيها دافع الإقبال عليها..

وعلى ضوء من هذا المبدأ المثالي آنذاك فقد سرت حافياً مع زميلي.. وإبرازاً للمواهب المدفونة.. واختصاراً للطريق في الجبل وللزمن كذلك.. فقد أخذنا كلانا في تسلّق الصخور أو التسلل من بينها منفردين.. متحاشيين بحكم الغرور الصبياني أن تكون مع بقية الركب نشاهده دوننا.. سائراً على الطريق الممهد بقلب الجبل.. لا تجمعنا به تلك البسطات، أو الأزقة الترابية تقع من قلب الجبل موقع الواحة من الصحراء؛ حيث ينتظم فيها سير الركب دون اهتزاز ـ أو تأرجح قابل للسقوط.. ودون الأوامر متكررة لركابها بالنزول والسير على الأقدام خشية الإنزلاق لمدة تتراوح بين الدقائق وأرباع الساعة..

وقد تسنّى لنا أن نرى فيما رأينا بوسط الجبل تقريباً تلك الصخور التي ينبجس منها الماء.. والتي تلونا لديها الآية الكريمة إكباراً لعظمة الخالق الملموسة ولجلال القرآن "وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء".. وترشفنا فعلاً من زلالها.

وكنا ظمأ.. مع همنا إطفاء حرارة "المعدوس" التي استمرّت شعلته

من عشاء الليلة الماضية والعة في معدتنا.. كما يستمر اللهيب متوهجاً في شعلة قبر الجندي المجهول تحت قوس النصر في باريس.. وتلك مزية للعدس.. بالإضافة إلى مزاياه الأخرى ـ تذكر.. فتشهر كدليل على فيتامينيته الحديدية النارية.

وفجأة.. أشار زميلي.. فرأيت على مسافة بعيدة بإرشادات المنظار المكبّر وهو عينه الحادة النظرات بعض القردة التي لم أتبينها بوضوح إلا بعد إرشادات متكررة منه بالسبابة المنتصبة والمؤشرة في دوران متصل لبعض الاتجاهات حيث تبينتها.. تماماً متجولة فيها.. وكانت القرود تسير في جماعات متفرقة منتظمة.. منها الكبير الهائل الحجم، ومنها الصغير الضئيل.. والناشئ، والغلام، والفتى من الجنسين بالطبع.

ولقد أعجبتني خيلاؤها ـ وشعورها بالسيادة في موطنها.. ترمقنا نحن الآدميين في نظرات استنكار.. وكأنما نحن دخلاء على مناطق نفوذها.. حتى لكأنها تقول لنا.. لقد كان لا بد لكم قبل أن تصلوا إلى هنا أن تطلبوا منا الإذن بالمرور في قلب الجبل.

وبواعز من الخيال الروائي الناشئ عن قراءة روايات الجيب.. فقد أخذت أتصورها أمة قائمة بذاتها في جوانب.. وأطراف، وأعالي هذا الجبل العتيد.. أمة تحكمها عادات وتقاليد.. وعرف متوارث.. تماماً كبعض بني آدم في نشوء تكوينها الحضاري.. ولا أدري كيف قفزت إلى ذاكرتي آنذاك نظرية المستر داروين القائل بالحلقة المفقودة، وأصل الإنسان.. ولكنني سارعت بالاستغفار.. وإزاحة هذه النظرية من ذهني.. في تقزز واستنكار، أو استكبار أن تجمعنا وإياهم أرومة واحدة.

ولذلك ولإشغال دماغي بالمفيد الجيد.. فقد بدأت الاستعلامات من

مصدرها من زميلي الحمار الصغير باعتباره صاحب دراية وعلم بأمورها وكأنني أطلقت بسؤالي إياه عنها.. صنبوراً من الماء الدافق.. فقد شاء له خياله البدوي الواسع المجال أن يسرد على بعضاً من تلك العادات القروية والتقاليد والعرف المتداول في سلاسة وتدفق جعلاني أشك في أن مردد ببغاوي لما يسمعه من كبار ذويه وأهل صنعته.

ولكن ما أن قصّ على بعض القصص المشهورة لدى أهالي الوديان المجاورة للجبل على قمّته.. حتى بدأت في تصديق رواياته، حين تذكرت حكاية عمّتي عن قرود جبل كرا ونوادرهم فيه..

(١٠)
حكاية عمّتي

فقد حدث ذات ليلة في بيتنا بجدة.. وعلى ضوء خافت من الفانوس الصغير أن اتكأت عمّتي في فراشها وأنا انسدحت بجوارها مبحلقاً فيها وكلّي أذن صاغية لما ترويه من حكايات مسلية طريفة لمن كان في مثل سنّي..

وهنا لا بد قبل الحكاية من وقفة قصيرة جداً فيما أخمن أن تكون ـ فقد كانت العادة في بيوتنا أن تتعهد إحدى سيدات العائلة الكبيرات في السن في حواديت روايات قصيرة مثيرة مغرية توسع في الأطفال دائرة الخيال وتربى ملكاته فيهم..

وهن غالباً ما يعمدن زيادة في التشويق، إلى جعل الجان والمردة والغيلان عناصر رئيسية ثابتة في أقاصيصهم فتجد الأطفال مسمّرين حولها وكأنهم تماثيل جامدة أو دُمى مبحلقة أعيانها.. متسلّطة على فم الروائية الشعبية..

بل أنني أذكر حينما كانت تقتضي بعض المناسبات أن يبيت قسم من عائلتنا لدى بعض أقاربنا تحرص العائلة المضيفة لنا أن تتولى السيدة الكبيرة

بها مهمة السيدة الكبيرة في بيتنا وإن كانت لا تصل سيدة البيت المضيف غالباً في المكانة لما تصل إليه عمتنا أو خالتنا وتلك إحدى خبايات الألفة للصوت الواحد المعتاد وللطريقة الرتيبة مهما كانت ميزاتها . .

وأخال أن تلك العادة المنقرضة من بيوتنا، عادة قيام الست الكبيرة بسرد الحكايات للأطفال، راجعة في الدرجة الأولى إلى الشيطنة كما كانوا يسمونها احتراماً لرب البيت وتوفيراً لراحته وهدوئه وهي ولا شك خطوة ماكرة لجذبه وقضاء وقته بدلاً من قضائه إياه بالمقهى أو خارجه . . أياً كان . .

ومن هنا فإنني أخال كذلك أن المفكر في اختراع الراديو أولاً ثم التلفزيون أخيراً إنما كان أصلاً من شعب كشعبنا كانت السيدات الكبيرات فيه تقوم بالحكايات لإشغال الأطفال وهذا ليس مهماً بقدر الأهمية في إغراء واجتذاب الزوج رب البيت لقضاء السهرة في بيته، ثم إن مزايا عادة الحكايات البيتية للصغار كانت لمن يسمح سنهم بالفهم فهي تقوم مقام التهنين للأطفال الرضع جلباً للنوم. وللتهنين كلام آخر.

وعوداً على بدء فقد حدث ذات ليلة وعلى نور الفانوس الخافت الضوء أن كانت حكاية عمّتي تلك الليلة خاصة بالقردة، بل بقرود جبل كرا بالذات.

والحكاية بالصراحة مشهورة ومتداولة بين أبناء جيلنا ومن قد يليهم ومجملها في غير داع للمضايقة بتفصيلاتها الجزئية الدقيقة كالآتي:

الزمان ـ على طريقة المسرحيات العالمية . . أيام الأتراك في الحجاز.

المكان ـ منتصف جبل كرا تقريباً وفي أحد الأماكن المنبسطة نوعاً ما . .

جوها ـ غائم كثير السحب الداكنة المتلبّدة في كبد السماء..

أشخاصها ـ تاجر طرابيش تركي ودليل بدوي من ثقيف وجماعات من القردة..

موجوداتها ـ وهذا من تجديداتنا.. بعض البغال.. وبضاعة عبارة عن صناديق ملأى بالطرابيش.. للبيع..

ويقول المجمل: أنه بينما كانت القافلة تسير بالطرابيشي التاجر ورفيقه وبضاعته فوق البغال، حدث حدثاً طبيعياً بحكم الغيوم.. أن أفرغت بعض السحب الكثيفة بضاعتها مطراً غزيراً تسرّب جزء كبير من مائه إلى الصناديق ومنها بالطبع إلى الطرابيش داخلها فأصابها ببلل ثقيل وكانت القافلة قد توقّفت عن السير أثناء هطول المطر.. وحين أن كفّت الأمطار تماماً عن الانهمار زالت السحب بطلوع الشمس وصحو الجو. قام التاجر إلى الصناديق ففتحها وأخرج ما بها من طرابيش ثم تولى نشرها على الحجارة.. وفوق الصخر حتى تجف تحت الشمس، وتحت أنظاره المسلّطة عليها..

ولما كان هذا التاجر قد أنزل طربوشه الذي لا يفارق رأسه إلاّ مضطراً، وقيل أنه كان ينام به على طريقة صديقنا المرحوم الأفندي في احتفاظه بالشطافة والغترة على رأسه في السمرة وفي بيته بل وعلى سرير النوم.. دليل ألفة وشعار إخلاص للعادة وولاءلها.

ولما كان هذا التاجر قد أنزل طربوشه عن رأسه مع بوادر الرذاذ الأول مضطراً لعدم إعطاء المطر فرصة لبلله فقد احتفظ الطربوش ـ لا رأسه ـ بجفافه وبحالته الطبيعية ـ ولهذا وللنزول على حكم العادة ـ فقد سارع إلى ارتدائه فوراً وبمجرّد كف المطر عن النزول وجلس مختالاً به

يراقب طرابيشه المبلولة والمنتشرة على الصخور والأحجار.. وللشهرة العالمية عن القردة في حبها البالغ حد الصبابة والهيام بالتقليد والمحاكاة.. ولاستظرافها لأسباب خاصة بها هذا القالب الأحمر يقي الرأس أو وسطه على الأصح بعض حرارة الشمس.. ويزينها زينة الطاووس بهذا الذيل الأسود الذي كان يسمّى زر الطربوش والمدلى من الوسط حتى أطراف القذال ـ بالفصحى ـ أو حبال الرقبة ـ العامية فقد رأت القردة أن تجرب استعمال هذه الزينة مقلّدة صاحب الطربوش ومحاكية هذا البني آدم.. في تيهه بهذا القالب الأحمر ذي الزر الأسود الطويل ـ غطاء للرأس.. وبزة آدمية جديدة.. لم تألفها على رؤوس الأشهاد من أبناء الجبل سكان الوديان.. وفي قمته وبالسفح منه.

وفي مهارة القردة وخفتها.. أخذ جماعاتها تتسلل لواذاً في رشاقة مشهورة لها وفي خبث بارع في التضليل.. حيث استولت في الأخير على الطرابيش.. ووضعتها فوق رؤوسها.. صاعدة بها بعض جوانب الجبل العسير صعودها على سواها..

واصطفت في طوابير منتظمة.. ضاحكة.. لاعبة.. هانئة بهذا الزي البني آدمي الظريف.

وبالطبع فقد جنّ جنون تاجر الطرابيش لضياع البضاعة التي كان يبني القصور العالية في خياله على بيعها.. وإحصاء الربح المقدَّر منها.. ولم يجد بداً.. في الأخير.. من أن يطأطئ من طربوشه.. ويتنازل عن كبريائه ليعلن إلى دليله الثقفي أنه لاجئ إلى حماه ـ وإلى مروءته العربية ـ ونخوته ـ وأنه يرجوه أن يساعده في استعادة طرابيشه من هؤلاء القردة أبناء الجبل الملاعين.

وبتقدير البدوي لربح التاجر تقديراً مبالغاً فيه بعض الشيء.. فقد فضّل أن يساومه مبدئياً لأخذ حصّته نسبة مئوية معقولة في ذلك الربح المقدّر والمنتظر..

وتقول الرواية أن البدوي تساهل بعد مساومة مضنية.. فقبل أن يأخذ بعد استرجاع البضاعة عشرة في المائة وحسب القاعدة الشائعة في أيام الطرابيش والقائلة في دوام وحرارة أفد.. واستفد.. فقد قبل الطرابيشي هذه النسبة.

ودليلاً على صدقه وحسن نواياه.. فقد سلم الدليل حسب المتبع ٥٪ مقدماً كعربون ثقة.. وصدق تفاهم.. واتفاق.

وهنا.. وفور استلام الدليل البدوي الخمسة في المائة.. تفتقت ذهنيته بحرارة ما دخل حسكلة من قروش.. عن حيلة لطيفة من حيل الشطار.. فأشار إلى الطرابيشي بأن يقوم من مكانه تحت أبصار القردة المتفرجين عليه وفوق رؤوسهم الطرابيش.. إلى ركن قرب منخفض ولكنه بارز المنظر وأن يزق فيه.. والزق باللهجة البدوية.. أن يعمل زي الناس باللهجة الحضرية هو التغوط.. بالفصحى.. أي إتيان الغائط الذي هو أصلاً الأرض الواطئه.. فإن لم يكن لديه ذلك المخزون البشري.. فعليه أن يقلد الزاقق في كل حركاته المقررة.. وبانتهاء العملية موضوعاً فعلياً، أو شكلاً مظهرياً.. عليه أن يحمل طربوشه وأن يقوم بحركات التطهير والاستنجاء.. علناً ـ ثم يقذف به بعيداً عن مكان العملة!

ولم يسع الطرابيشي إلا أن نفذ ما أشار به دليله ـ وكانت النتيجة الحتمية حسب عادة القرود في التقليد وفي المحاكاة إن عملت ما عمله التاجر تماماً وبالضبط فقذفت هي الأخرى بعد إجلاء المتبع من الزاقق..

بجميع الطرابيش.. وحينذاك ـ سارع كل من الطرابيشي والدليل إلى جمعها.. فاسترد التاجر بضاعته.. وقبض الدليل.. عمولته.. وأرضت القرود نزعتها في التقليد والمحاكاة.. طرداً وعكساً في أخذها للطرابيش ثم إعادتها إياها!

(١١)

يا زارع الريحان

وهكذا.. في وسط كرا وأمام طائفة من القردة سكانه الأصليين تذكرت حكاية عمّتي عنها وعيني مع اتجاهات نظرات الحمّار الصغير الجدابي.. ويدي في يده عربون إخاء.. وإعجاب وتسليم بالرفقة الطيبة.. حتى رأس الجبل.

وفي الواقع.. فلم يكن ما رأيناه من تفجر الماء من بين الصخور ومن منظر القرود واستعادة بعض نوادرهم.. كل ما رأيناه بهذا الجبل الذي صار سهلاً.. فقد رأينا وبالواسطة وبأنفسنا كثيراً من أنواع الأعشاب البرية الجبلية.. وتم الشرح من مصادره في دقة تكاد تكون علمية.. وفي إسهاب بالغ.. لكثير من الخصائص النادرة لهذه الأعشاب في علاج كثير من أنواع الأمراض.. حتى لقد جال بذهني الصغير بحرارة الموقف أن قررت التخصص في فرع من فروع الطب الطبيعي ـ الهمبوتيكي ـ في مستقبل أيامي العملية وبفتح عيادة خاصة في جدة.. وبعد عودتنا إليها من رحلتنا الكريمة بالطائف.. وأنا أجمع في العودة ما تيسر من هذه الأعشاب وأن أتفق مع الجدابيين ليكونوا وكيلين لي في تصديرها.

وكان المشروع رغم صبيانيته ـ هاماً في حينه.. فلقد كاد هذا العلاج

أن يكون هو العلاج الوحيد في بلادنا.. رغم وجود بعض الأطباء العصريين من أبناء العروبة خدّامي القضية.. الذين لم تكن تجاربهم فينا مشجعة على الإقبال عليهم.. والذين أساءوا حينذاك إلى سمعة الطب وإلى عدم جدوى الأدوية المحضّرة صناعياً، وكان أن استمسك الأهالي جميعهم في المدن بالتجربة وفي الريف وبالوراثة بالعلاج الهمبوتيكي بالأعشاب.. تقوم عليها الوصفات.. والمعالجة الطبية تمارسها جداتنا وأمهاتنا.. مقتديات بالسلف من الأجداد والآباء.. وعلى سبيل المثال العملي في هذا الباب.. ومع التجاوز عن عدم التوفيق في اختيار المثل ذوقياً فإن من أحس بحبسة أو كتم لأنفاسه التحتية ـ أن يأخذ فنجاناً من النعناع المغلي.. فإن له مفعولاً مطلقاً.. في تصريف تلك الأنفاس الخبيثة الكريهة الواجب تصريفها أولاً بأول خشية القضاء على حياة حابسها بدافع الحياء التقليدي أو الوقار المصطنع..

فإن حدثت مضاعفات لا سمح الله نتيجة هذا الحبس بالذات.. أو لأسباب خارجية عن نطاق العوامل السامية فيه مما يؤدّي إلى قبض خطير.. فإن كذلك في السنامكي العلاج المضمون القاطع إن شاء الله.

ومن المعلوم المزروع.. كما لا أحتاج أن أقول: أن النعناع من غراس بلادنا.. فهو دواء في متناول اليد وميسور.. ومؤتمن باعتباره ابن تربتنا نفسها.. فضلاً عن أن له غير هذا الجانب العلاجي جانباً اقتصادياً كذلك ـ فبراد النعناع ينوب عن براد الشاي المستورد صرفاً أو ممزوجاً به.. في بعض الحالات.

كما أن السنامكي كما تدل نسبته عليه عشب وطني صميم.. ثم أنه قد بقيت له حتى هذه اللحظة وستبقى له شهرته العالمية الذائعة الصيت

ومسماه الأصلي القديم.. رغم كتابة حروفه باللاتينية.. ورغم زوال معالمه العشبية بتحضيره عقاراً مركباً تركيباً مزجياً عصرياً مع سواه من العقاقير نتناوله أقراصاً داخل زجاجات صغيرة أنيقة جرى تعقيمها ولفها بالقطن داخلياً وبالغطاء المحكم على فوهة الزجاجة نفسها كما هو الحال مع النعناع وسواه من الأعشاب المحولة إلى عقاقير طبية.

هذا.. وما دامت قد جاءت هذه المناسبة بطبيعتها.. وبطبيعة ذكر السنامكي والنعناع فإن من الثابت أن معظم التركيبات الدوائية الحديثة والتي أصبحنا لا نثق بسواها يدخل فيها كثير من مزروعاتنا ولا نستطيع هنا أن نفرط في واجب التنويه بآثار مفعولها ـ سواء كان مفعولاً مطلقاً ـ أو مفعولاً به ـ أو مفعولاً لأجله.. ومن بقية المفاعيل الأخرى.. مثل الحبق.. والعطرة والحناء سواء استعملت هذه الأعشاب الأهلية لعلاج الأمراض الداخلية أو الجلدية الظاهرة.

ولقد اقتصرنا هنا. ونحن على استحياء تام من الإطالة والاستطراد وقطع مجرى الرحلة على الأعشاب والمزروعات ذات الأسماء الرنانة على أن هناك أعشاباً يحمل كل منها شارة الجندي المجهول.. في مدار التطبيب والعلاج..

كذلك فإننا لم نتعرض لذوات الصرف والرائحة الطيبة من مزروعاتنا كالريحان والفاغية.. وسواهما مما تُرد أرومته إلى الزهور والورد؛ مع أن هذه المزروعات تخطت في رشاقة وجدارة.. ميدان العلاج الجسدي والحسي.. إلى معاني الأرواح والقلوب.. فأصبحت للحب بشائر.. وعلى الهوى علامات.. وللصبابات معاني منثورة.. أو مشعورة.. فنحن لا زلنا نردد في دنيا القلوب ما كنا نردده من عشرات السنين مثل:

- يا زارع الريحان حول ديارنا..

- يا فاغيا.. في العمائم..

إلى آخر منظوماتنا وأغانينا المرتبطة بالفعل بالريحان، وبالفاغية وبالعطرة وسواها.. وإنني لأتعشم صادقاً.. أن يتجه فنانونا من شعراء.. وملحنين ومطربين، بل وأطباء إلى نصب جسور جديدة يربطون بها قديمنا بجديدهم.. ويطلون من فوقها على ما تحفل به تربتنا من هذه النباتات الطبية في مجلاها الإنساني الحافل بالشعر وفي صعيدها الزاكي بالحب.. وفي مدارها الجسدي.. والروحي.. الزاخر بالمفيد.. وباللطيف..

وهذه اللفتة حسنة من حسنات هذا الجبل الذي صار سهلاً.. وكم له ـ كما مرَّ ـ وكما سيأتي.. من حسنات.. فلا زلنا في السبيل إليه.

(١٢)
حور حرائر

ومع ذلك.. فقد شاهدنا من بداية صعودنا (كرا) الجبل الغنى.. أنواعاً مختلفة من الحجارة والحصا. والصخور.. ونشهد في ألوانها.. وأشكالها.. وأحجامها نادرة وعزيزة.. وإن قسماً كبيراً منها يشير نظرياً دون فحص كيمائي وتجريبي إلى احتوائه على أنواع من المعادن الخام المطمورة.. أو المندسة بقصد عنا لأننا لم نبذل في سبيل رؤيتها النور إلى جهد مشكور منها أو منا..

وتلك الصخور.. وما يتفرع منها.. حصا.. أو حجارة.. أو على الدقة ما هو أصل لها.. بداية بتكوينها الصخري لا يحتاج فيما سجلته لنا روايات العارفين القدماء من شيوخ الطائف ومكة وما بينها إلاّ أن نتعلم علم الخواجات الجديد.. فنصبح حالاً أغنياء بالحديد وبالصلب وبالنحاس وبالذهب كذلك.

وعلى ذكر الذهب.. فلا بد هنا من استناده على أقرب صخرة لنربط بحبل من الخيال بين ما هو موجود من هذا المعدن الذي ترخص في سبيله الأرواح في بلادنا في المهد، بطريق المدينة المنورة، وما هو موجود فعلاً وإن كان مخبوءاً للآن في هذه التربة تربط بين أجزائها عروق

المحبة لم تجد بعد من يتحسس شرايينها.. وينصت إلى دفقاتها الذهبية والبلاتينية.. كذلك..

وكنت أظن بغروري المدرسي الفلاحي.. أن الجدابي الحمّار الصغير غافل عما أنا فيه ـ وأنه لا يتابع أحاسيسي وتحسساتي سواء ما تعلق منها بانبجاس الماء من بين الصخور.. أو بتفرّد القردة بميزاتها المحلية والعالمية أو بمميزات أعشابنا ومزروعاتنا.. أم بما تحمله وتحفل به أحجارنا وتربتنا من كنوز.. وكنوز.. ولكني اكتشفت أنني مخطئ في الظن.. فقد أمطرنا بكثير من المعلومات والروايات المتعلّقة بكل بند من هذه البنود في أسلوب بسيط وتشبيهات حية.. وتعبيرات تتجه للقصد رأساً في كلمات كأنها طلقات الرصاص في سرعتها وصحة تسديدها للهدف.

وسرعان.. ما استعدت الجملة القديمة القائلة.. رب جوهرة في مزبلة.. وكان الجدابي الصغير جوهرة حقيقية.. لكنها في وسط جبل.. لا في مزبلة.. كما تقول تلك الجملة في تعبيرها غير المهذب.. وغير الديموقراطي ـ حتماً ـ فلقد بدأ بعد أن استوعب بالبحث والشرح والإفاضة الماديات السالفة الذكر ماء، وقردة، وأعشاباً وحجارة.. أن يعرج على المعنويات حين لاحظ تشبثي بجعلها في المرتبة الأولى من نفسي وعواطفي ووجداني وذلك باستشهادي بالمناسبة.. وبدونها ببيت أو بأبيات من الشعر العربي قديمه وحديثه فكان في هذا المجال الفني ندا خطيراً.. وإن كان الفرق بيني وبينه شكلياً وجوهرياً معاً؛ فهو يستشهد بالأقوال البدوية.. وبالشعر الحميني.. وبالأمثال والنوادر عربية قحة في مصدرها.. وقولها.. وعنصرها.. بينما أنا أستشهد بذلك كله أو بعضه وبما وعته الذاكرة نقلاً عن كراريس مدرسية كنت حديث العهد بحفظ ما

فيها كالببغاء.. فأصبحت المقلّد.. حين كان هذا الغلام.. الأصل.. دون تقليد.. وهذا الذي أقوله عنه في مجال المعنويات الشعرية سجادة حريرية أبسطها له ليتربع عليها وسط الجبل.. وليقص على فيما يقص.. شيئاً عن القاعدة القلبية لتلك المعنويات.. بل ولكون النفوس عامة.. وللكون بذاته.. شيئاً عن الحب.. وسيرة الحب والمحبين.. مبتدئاً بالتغنّي بالجهل البشري في أوديتهم.. بعد التغنِّي بالجمال الطبيعي فيها.. وفي جبلهم هذا.

وكانت الشرارة الدفينة التي أشعلت فيه هذا اللهب الإنساني الخالد أنني ترنّمت في المناسبات المتفرّعة والمناسبة طبعاً.. ببعض الأبيات الشعرية.. أذكر منها هذه الأبيات:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب

إن العيون التي في طرفها حور ... قتلننا.. ثم لم يحيين قتلانا

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد.. وحولي أذخر وجليل

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا وأعطينا الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

وكان يسمع ويعي صامتاً.. متنهداً.. ولكنني لم أكد أقول:

حور حرائر ما هممن بريبة ... كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من لين الكلام فواسقا ... ويصدهن عن الخنى الإسلام

❊ ❊ ❊

حتى انطلق في حديثه الدافق وكأنه يخشى مزاحمة بنات مكة أو

أندادهن بما يعتبره وقفاً على بنات جبله وواديه.. وحزم لا يناسب كل ذلك سنه.. وذلك بعد أن ابتدأ قائلاً بهدوء ووقار: وماذا عساك ستقول في ظباء أوديتنا البشرية حين تراه؟.. وعندما يسلطن عليك النظرات السريعة الرواية.. البريئة المؤدى؟.. إنني سأقف بجانبك قطعاً ـ لأنك ـ ورع.. حضري.. يعني ولد صغير من أولاد المدن.. ولكنني أحببتك حيث زاملتك وألفتك.. وقد أوصاني والدك من وراء ظهرك عليك.. كما أوصاني أخي الأكبر.. بدوره على أن ألاحظك.. عندما تتخطّى أو تتسلق الصخور!..

إنهن ـ أي بنات أوديتنا ـ صبيحات الوجوه.. سود العيون.. سواد شعرهن الملفوف في غدائره.. غزلانيات القدود.. ساحرات الكلمات وإن انطلقت من أفواههن العقيقية انطلاق السهام المتتالية في فصاحة وجرأة.. يتبيّن حلاوتها ودلالتها من تذوق الجمال البريء في منبته.. وأظنك ستكون كذلك.. فقد رأيت فيك هذا التذوق أمام بعض أعشابنا.. وزهراتنا البرية.. في الجبل.. قبل قليل.

وأحب أن ألفت نظرك من الآن.. وقد تبين لي أنك تحب الشعر وربما تقوله.. إلى البنت مزنه بالذات.. فمزنة يا رفيقي الحضري.. هي وردة وادينا.. وادي الأعمق!..

(١٣)

وشرب من المَعْسَل

إن مزنة البنت القروية هي بالإجماع الريحانة العطرية في وادينا وستراها به.. ستراها في الصباح عندما ترد البئر لتملأ قربتها منه ـ وفي الضحى حينما تهبط البستان تساعد في بعض الأعمال به.. وفي المساء بينما نكون جلوساً في رحبة البيت نتسامر.. أو في إحدى الليالي عندما يحتفل بكم أخي الأكبر محمد على رأس الفتيات في صفهن برقصة ـ الخليطي ـ ترتجل الشعر.. وتقود الفرقة من بنات جنسها للرد على الفتى الأول بين الفتيان..

إنني يا رفيق الدرب في الجبل الآن وعابر الوادي ـ لا أريد أن أملأ رأسك بصورتها ـ تتخيلها.. ولكني وأنا أفضل أن ترى مزنة بذاتها.. لا بد وأن أعطيك الإشارة عنها ـ إشارة الخطر ـ لتكون على حذر ـ وأطبق أحمد فمه، فلم يقل جديداً عن مزنة بعد ذلك.

وأحمد هو زميلي الجدابي الصغير شقيق أخيه محمد صاحب الحمير، فقد نسبت طيلة المدة السابقة أن أسميه.. وقد عللت الحب الوثيق غير المفقود بيني وبينه.. في أول العهد به أنه ربما كان للتسمية المشتركة في الاسم دخل في قذف حبه بقلبي، ولكنني حللت الأمر

منطقياً وروحياً وتجريبياً على ضوء من الحديث الشريف.. الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف.. وما تناكر منها اختلف..

وهذه حالة صادقة مجربة ـ فأنت قد ترى إنساناً ما، فإذا قلبك ينفتح له وروحك تهش لرؤيته.. وعينك تؤكد لك ألفة مرآه ـ حتى لكأنك عشت معه الحياة من قبل فعلاً، كما قد يحدث العكس ـ حينما ترى شخصاً ليست لك به معرفة أو اختلاط أو معاملة سابقة فإذا إحساسك ينفر منه، أو يتهيبه.. أو لا تطيقه.. ولعل تعبيراتنا الشائعة على الألسنة والصادرة من القلوب مثل أنا أكره.. هادا الشخص من الله.. أو هادا الشخص ما ينبلع لي من زور.. أو ـ ما أطيق رؤيته يخويا ـ كدا.. بس لله في لله..

بشيء.. من هذا التفسير لحبي الطبيعي للفتى الجدابي.. أو بدونه.. دون أن أفكر في الداعين لقبول فكرة تناسخ الأرواح تستند إلى ركن من جدار متداعي.. فلقد توثقت بيننا المودة والألفة حتى لقد أصبحنا في أيام ـ وكأنما هما ذخيرتا سنوات ونسيجا عمر طويل ـ واستمر تسلقنا بعض الصخور بالجبل أو تسللنا من بينها.. أو سيرنا أحياناً بالسهل في الدرب الخاص نشرف على بقية الركب.. وتمر بنا الرحلة حلوة جميلة.. جامعة مانعة.. كما يقول المناطقة في فكرة السلم الذي كنت حديث عهد بقراءته في الفلاح.. وهو كتيب مدرسي صغير ـ من كتب المنطق كما كانوا يسمونه.. أو الفلسفة في التعبير العلمي والعصري خارج الحدود، حتى جاءت اللحظة التي أشار لي فيها بالتوقف في انتظار القافلة ولما سألته ولم؟ أشار إلى نقطة بعيدة ـ قريبة.. وقال لا بد أن تكون الفرحة بها جماعية مشتركة..

وفعلاً.. فقد انتظرنا الركب، حتى إذا تكامل بنا أو بهم جمعنا علمت أننا على مقربة من بركة المعسل، أي من هامة الجبل.. وكلمة "المعسل" كافية لأن تعطي لبركته شهرتها التاريخية.. وسرنا سوية.. على بركة الله ـ حتى إذا وصلناها ـ تبادلنا التهنئة ـ والعناق بالأعين والنظرات الشاكرة.. في حمد وتسبيح، وتهليل وتكبير..

ثم أخذنا في الاستعداد للشرب المباح من ماء المعسل، ومن المنسرب الصخري للمنبع مباشرة.. فقام الحمّار وأخوه وبعض أفراد الركب من أهل الديرة بجمع بعض أوراق الشجر الخاص بتسهيل عملية الشرب.. من مسرب المنبع الذي هو عبارة عن فتحة صغيرة في صخر ملتصق يتسرب منه الماء.. وقد استعملت كسواي، بعض تلك الأوراق لتسهيل جمع ومرور الماء من الصخر إلى الفم..

وكان كل من تلك الأوراق عبارة عن ورقة نباتية محدود به الوسط طولياً.. لها حجم وصورة الكرته، أو اللبيسة، المسهلة لمرور القدم وتسهيل دخول عقبه إلى الحذاء.. ومعذرة شديدة في هذا التشبيه المكروه أو المحرم ذوقياً.. ولكن معذرتي في اللجوء القسري إليه أن تلك الورقة النباتية الخضراء لا شبيه لها في الوضع وفي الموضوع إلاّ ما ذكرت.. أعزّ الله السامعين..

ولعلّنا من الوقع في هذا المأزق البياني البسيط نعطي النعنعة كاملة لمن يحرصون على نقل الصورة الفنية مهما كلفهم الأمر من خروج على مألوف.. أو خدشاً لذوق عام ـ في سبيل الدقة لتشبيه صادق..

وابتدأنا الشرب من المعسل.. وأقسم أنه كان حلواً.. زلالاً.. بارداً كأنما كان خارجاً مما يسمونه "الفريزا" في هذه الثلاجات العصرية التي

عرفناها واستعملناها في حياتنا الحاضرة فيما بعد، بعد أكثر من ربع قرن من رحلتنا هذه.. وشربنا هنيئاً مريئاً.. وفي اعتدال من الترشف.. فقهنا به دلالة كلمة رشف.. اللطيفة أداء ومعنى.. الشعرية.. تردد أبداً في حالات الرضا والوصال.. ورشف الرضاب.. وذلك ما كنا نلتذ به من فم الصخرة.. ماء مثلجاً بقدرة الله سبحانه وتعالى.. ثم بفعل مروره باطن الأرض واختزانه بقلوب الصخور.. محتفظاً ببرودته الطبيعية المدهشة..

وربما وردت في هذا الباب إشارة لطيفة إلى إمكان قيامنا.. خلوياً.. بعملية تبريد صخرية للماء.. نجهل حتى الآن كيفية تركيب وتصنيع أجزائها المختلفة.. أسوة بما كنا نقوم به من عمليات تبريد طبيعية في المدن.. بواسطة الزير المغربي.. والشراب الفخار.. فنشرب الماء بارداً دون أي ضرر منه.. فقد علمنا عرضاً وبطريق الصدفة من بعض المشتغلين بالطب.. وبالتخصص في علاج مرض ـ القداد ـ بالذات وتوابعه أن للثلج والمثلّجات الاصطناعية الخارجية بعض الأذى.. فضلاً عن أن الإكثار من "البارد" غير الطبيعي.. يسبب بروز الكرش.. بروزاً يؤدّي إلى الشك في حمل صاحبه حملاً يستدعي ببلوغه أشهره الأخيرة الانتقال لأقرب مستشفى لإجراء عملية عادية.. أو قيصرية إن تعسّرت الولادة واستدعى الوضع إجراءها في الحال..

وحرصاً على أداء الأمانة التاريخية.. وللنفع العام.. نودّ بهذه المناسبة أن نشرح لأبنائنا من أبناء الجيل الحاضر الطريقة التي كنا نشاهد أمهاتنا وجداتنا يقمن بها بالبيت في أيام الصيف في بساطة ويسر ونظام بيتي لتأمين ماء الشرب البارد.. لكل من فيه..

لقد كان كل بيت من بيوتنا يحتوي في أثاثه على أزيار الماء الفخار المصنوعة محلياً ـ وتلك صناعة بادت دون لزوم ـ وكان أحسن تلك الأزيارما يطلق عليه "الزير المغربي" وإن كنت لا أدري رغم وطنية تلك الأزيار جملة من أين وردت صفة المغربية لأزيارنا؟

وربما تمكن أحد المؤرّخين والمنقبين عن الآثار أمثال الأنصاري والزيدان ومن نحا نحوهما من تحقيق هذه النسبة في التسمية الزيرية.. حرصاً على نقاء تراثنا البلدي الصميم من الشوائب..

كما كان لكل زير غطاء.. ولكل زير كذلك مغراف.. ومن هنا فيما نظن وفي مناسبة اصطلاحنا ولد المثل الشعبي القديم القائل.. كلما دق الزير في المغراف.. واعتقد أن شرح مضمونه ومناسبته معلومان للجميع..!

(١٤)
يا للي رماك الهوى

ولقد كنا في كل بيت من بيوتنا.. نقتني مجموعة متنوعة الأشكال والأحجام من ـ الشراب ـ بتشديد الشين المكسورة ـ جمع شربه.. وهي إناء فخاري لطيف يوضع فيه الماء للشرب الصيفي منه.. بارداً مستساغاً ـ لا ضرر فيه ولا ضرار.. أي لا قدح منه.. ولا قداد!.

ولما كان الفن والتفنن ميزتين بارزتين لدى الستات والبنات بحكم الفراغ الطويل الكافي.. ليباهي كل بيت بمجموعته المختارة من الشراب ـ فقد كان لكل شربة غطاء قماشي رقيق من الشاش غالباً.. مدندش الأطراف، بالترتر وبالتللى وما إليهما.. ويأتي بعد هذا الغطاء القماشي.. وفوقه غطاء من النحاس أو الصفر المصقول وفي قمّة هذا الغطاء النحاس قبة صغيرة مجلوة براقة.. وقد يكون الباعث على أن يكون الغطاء ذاته.. وقبته آنذاك.. ما ساد في العهد نفسه.. سواء من انتشار الطربوش وزره فوق الرؤوس.. أو قيام القباب فوق المساجد والأضرحة الكبرى والمقابر. فلقد كان العصر عصر بدع سائدة.. وزخرف وثنى.. وطلاء خارجي مرموق البهرج والزخرفة والطلاء.

وكانت حالة اقتناء كل بيت للأزيار.. وللشراب الكبرى والصغرى

منها هي نفس الحالة الاجتماعية السائدة الآن في اقتناء الثلاجات الكبرى والصغرى سواء.. بسواء.. لولا اختلاف المقامات بينهما.. فقد كان موضع جلوس الزير "بيت الماء" ومكان الشربة فوق المرفع في السيب نهاراً وبالطنف بالسطوح ليلاً.. عدا المفضل البارز منها.. فإن مكانه في الروشن.. أو الرشاون كما نسميه صاحب الصدارة في المنزل.

وللانصاف والإفراط في دقة المقابلة والمقارنة فقد كان هناك نوع من الشراب الصغير تحمل باليد.. للمناسبات الخارجية نزهة أو سواها.. وهذه الشراب الصغيرة.. تعادل تماماً.. تماماً.. ما نسميه "التورمس" الآن..لولا أن الفرق بينهما هو أن الماء يوضع في الشربة الصغيرة ليكتسب البرودة من طبيعتها الطينية الفخارية.. وأن الماء يوضع الآن بارداً ومثلّجاً

في التورمس؛ لتنحصر وظيفته في ضغط الماء كذلك. أطول مدة ممكنة.. فالشراب الصغيرة كانت عاملة برودة.. أما الترامس فهي حافظة لها.. ليس غير. ولأجل محدود!.. وأعتقد أنه لا زالت آثار الشراب كأنموذج تقريبي ممثلة في الدوارق الكبيرة والصغيرة مملوءة بماء زمزم في المسجد الحرام بمكة المكرّمة وبماء عين الزرقاء بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة..

ونعود حيثما كنا في رحلتنا.. أمام البركة ـ فالحق يقال أننا ارتوينا من المعسل ـ كما يرتوي البرشومي الذي كانت الباعة لترويجه وتزكية لمعدنه الأصيل تنادي عليه بقولها "وشرب من المعسل يليد" ويليد هذه تخفيف يا وليد التي هي قطعاً تصغير يا ـ ولد ـ ونترك هنا لسوانا من أمثال الأبوين.. أبي تراب وأبي مدين ـ تعقيب أسباب هذا التصغير

ومدلولاته تحبيباً.. أو تحقيراً.. أو سواهما مما سيصلان بإذن الله إليه.. آجلاً.. في الغالب.

فقد ألف الباعة المتجولون في الأزقة والحواري من أبناء مدننا الحبيبة في سابق العصر والأوان أن يؤلفوا في نداءاتهم على بضائعهم ولها أغاني بسيطة ـ خفيفة الروح.. ورغم بساطتها ـ فإن قدرتها تتمثل في أن الأغنية وحدها تدلك على نوعية الشيء المباع دون ورود أو ذكر الصنف المنادى عليه بصراحة.. وذلك مضمونه ومؤداه أرقى أساليب الدعاية البلدية..

ومن أمثلة ما كان يرد في هذا الباب الظريف.. يا اللي رماك الهوى.. واستوى يا ناعم ـ ويا حلاوة بلا نار.. يعنون المشمش.. والجمار.. إلى آخر تلك النداءات الرقيقة الممطوطة الملحنة تلحيناً خاصاً بها.. والتي نسأل أن يتوفق بعض متعقّبي الفولكلورات الشعبية وباحثيها في كتيب دراساتهم الفولكلورية من فنوننا الشعبية إلى جمعها وتسجيلها مع سواها في كتيب مطبوع ـ يوزع مجاناً ـ للأجر.. وللثواب فإننا لا ننصح بطبعها في أسطوانات معبأة أو ملحنة فاستغلال مثل هذه الفنون الروحية للتجارة والتكسب في السوق المشتركة بيننا.. وبين بيروت.. أمر يفسد نظرتنا إليها وعقيدتنا فيها..

وهكذا ـ فبعد أن كفل لنا ماء المعسل.. الارتواء والنشاط استأنفنا الصعود إلى القمة. وصعود القمم.. حتى ولو كانت إحداها قمة جبل كرا.. مضن ومتعب.. ومع ذلك فقد واصلنا صعود البقية الباقية من الرحلة حتى استقر بنا المقام فوق رأس الجبل العالي الأشم.

وهنا أخذ شمل الركب يتبدد.. ويتعدد بتعدد المفارق.. كل إلى

أهله.. إلى ذويه.. إلى أحبابه.. في "ديرته" الهنيئة الوادعة في واديها الخصيب.. في الهدا.. والمحرم.. والغديرين.. والحسانين.. والكُمَّل.. والمشايخ.. واللوامي.. الخ.. حسب قبيلته وربعه.. من قريش.. أو من الفعور.. أو من النمور.!

أما نحن.. الوالد وأنا.. فقد أصرَّ علينا الجدابيان محمد الكبير وأحمد الصغير.. قبل مواصلة السير أن نكون ضيفي الشرف.. نزيلين محترمين.. في واديهما.. وادي الأعمق . ونتيجة لإصرارهما فقد قبلنا شاكرين.. هذا الكرم.. العربي الرقيق.. والأصيل.. وكأنما عرف الحماران نفساهما.. أعزك الله.. بما تم بيننا وبين صاحبيهما.. فنهقا.. إعراباً تقليدياً عن فرحتهما لا لفتهما لنا بقبولنا الدعوة.. وقد داعبت أنفيهما رائحة الأرض الطيبة.. ودعاهما نداء الواجب والحنين إلى المربط.. بجوار بيت صاحبهما المعتاد.. فانطلقا انطلاق الآلف الخبير بالجادة.. خطوة.. خطوة.. وشبراً بشبر.. وحافراً.. بحافر.. نحو وادي الأعمق. حيث مكان الدعوة.. التي سبقتنا للتعريف به روائح النعناع.. والريحان.. وشذا الأزاهير[1] البرية.. والأغصان الرطبة.. وأنفاس الطين والماء.. ماء السماء الطاهر الطيب كما يرد تعريفاً له في المياه يجوز بها الوضوء.

وبتلك المقدمات الشعرية ـ فقد بدأنا نمارس الشعر الساذج الحي. شعر الطبع والطبيعة.. لا شعر الألفاظ المنسقة. والكلمات المنحوتة تظللنا غصون الأشجار الضخمة.. وتحتنا سهولة الدروب المعبّدة.. لا

(١) جمع الزهرة.

بالدركترات.. بل فإننا لم نعرفها حينذاك.. بأيدي الرجال سكان تلك الوديان.. وتحفنا على الجانبين تستثير.. وتثير.. قلوبنا الواجفة لفتات العذارى من البنات حاملات القرب واردات الماء.. أو الصادرات عنه..

واكتملت أسباب الحفاوة القلبية بنا طبيعية لا تكلف فيها.. بالزفة الموسيقية تردد أنغامها دون نوتة.. أمامها.. كلاب الحراسة للبيوت وللحيطان وقد استحالت بمعرفة صوت الجدابيين - ورؤية الحمير - إلى هوهوة رتيبة تؤلف في مجموعها.. ترديداً رخيماً من كورس متفاهم متحد ومنسجم مع الجو الشعري الحالم!

(١٥)

مزنة

وهكذا وصلنا.. بين هذا الدفق الرقراق.. توشت روافده.. نبعاً وزهراً وعذارى وحقولاً خضراء انتشر بها كلها الحب والفتنة حتى شمل كلاب الحراسة ترعى خطوات دوابنا مهللة مرحبة بها.. وبنا بأسلوبها الحيواني الأليف.. حتى وصلنا إلى وادي الأعمق.

وما أن انتهينا حيث منزلنا في الوادي ـ واتجهنا صوب بيت الجدابية.. حتى كان قد تجمّع المستقبلون لولديهما من الأهل والجيران ـ محيين ـ في سماحة وود.. هذين الضيفين الحضريين.. فلم نعد نسمع إلاّ.. هلا.. وحياكم الله.. ويا مرحبا.. واتفضلوا.. جملاً فطرية الطبع.. صادقة التعبير رغم تقليدية أسلوبها الرتيب المكرور تفيض بمعنى الجود بالموجود سماحة نفس.. وفرحة بالفرصة الكريمة.. لإرضاء طبيعة الكرم العربي الأصيل..

واستقر بنا المقام داخل بيت حجري صغير الحجم أنيق الشكل ـ مرتب ترتيباً لطيفاً بما حواه من الشمل.. جمع شملة ـ أبسطة أرضية وطنية مزخرفة الألوان والأشكال.. ومجصصة جدرانه بالطين الأحمر ـ ترصّعت كلها للتحلية والتزيين ـ والديكور ـ بنقط مربعة ومثلثة من الطلاء

الأبيض.. وأجمل ما عبر عنه هذا الديكور الفطري النشأة تعليق الطِّيران، والدُّفوف والأحزمة الجلدية.. والبنادق والحساكل المدندشة على الجدران تجاورها بعض الأواني الخفيفة من دلائل القهوة النحاسية الصفراء.. والمرابيع.. وللبيوت الطينية في ريفنا جمالها الشعري الحالم والمهدئ للأعصاب تهدئة تبلغ حد الإغراء لاتخاذ الكسل وظيفة بيتية فيها وبالأخص في الضحى.. ولهذا فإنني أعتقد أن وصف الشاعر لمحبوبته أنها نؤوم الضحى.. كان تعبيراً صادقاً عن حسن صادق.

ومن هنا ـ فإننا إذا أردنا أن نجبر البدوي على الحركة المستمرة لا بد في المستقبل القريب أو البعيد أن نصنع له دوراً عربية الروح لكنها عصرية الطراز تستحثه على النشاط المتصل.. على ألا ننسى كذلك أن نبدل من زيه ولباسه بما لا يخرجه كثيراً عن وجهه العربي الآبد فالقياس في الأثر بين الثوب المبحبح مثلاً وبين البنطلون خمولاً وانطلاقاً مقدر وملحوظ ولما سبق وبدواعي التعب الناشئ عن الرحلة فقد كان أوّل ما زاوله الوالد وتابعته عليه هو النوم في ركنين متقابلين من أركان بيت الجدابي حيث الهدوء والجو البارد بعد اللظى والسموم أيام الحج.

ومع أن الوالد قد منح جسده حرية النوم غير مشروطة.. بدليل أنه على خلاف عادته قد أخذ في شخير متصاعد تدريجياً حتى عم الغرفة.. فإنني قد كنت في حالة المتناوم تغلبني الأفكار والأحلام فأتقلّب ويشتطّ بي الخيال في ترتيب البرامج اليومية والتي سأقوم بتنفيذها للطواف بكلِّ جزءٍ من أجزاء الوادي الأخضر..

وأعتقد أنني منذ تلك اللحظات وما تلاها من أيام سعيدة قضيناها في وادي الأعمق وفي سواه من الأودية المجاورة قد استجبت بكل روحي

ومشاعرها لنداء بلادنا الحلوة التي قالت لي: كُنْ شاعراً تتغنّى من اليوم فصاعداً بغير محاولاتك الشعرية العنترية المدرسية.. ببساطتي وبجمالي وبروحي المبثوثة في كل ما تراه من زرع وحجر، وماء، وطير، وإنسان وديع رقيق رقة جوى.. قاس أحياناً قساوة صخري.. ولسوف أكون لك ومعك في مستقبل زمنا ومرآى.. الطبع والانطباع.. وربما أطعتها وحاولت ما قالته لي تلك المرابع والأيام ما استطعت ـ وإن كنت أجهل مدى التوفيق أو الفشل في محاولاتي الشعرية النابعة من القلب.

ولحصر أفكاري نحو الهدف.. وعلى عكس أسلوبي السبهللي.. فقد أخذت أخطط لبرامجي لأقرر كيف أقضي النهار والليل في ألوان مختلفة ـ وفي أماكن متباينة.. واستطعت قبل أن يغلبني النوم أن أضع الخطوط العريضة كما يسمون أصول البرمجة لكلِّ شيء في هذه الأيام..

وأشهد أن الطبيعة في نفسي وفي ذاتها كانت أقوى ـ كما ظهر فيما بعد ـ من أي برنامج. فقد انطلقت على سجيتي وحسبما تجيء به الظروف والمناسبات الخاصة بي والمشتركة بين الجدابي المضيف.. والوالد الضيف إلا أن الحالة في صورتها العمومية كانت تسير تقريباً في حدود.. صلاة الفجر جماعة مع الوالد وأهل الدار ثم انطلاقي وحيداً إلى البساتين متجولاً فيها.. وقضائي جزءاً من الصباح الباكر ببستان المضيفين جلوس وبالذات لدى البئر أتملى بأجمل اللحظات التي استعرض فيها من قريب ومن بعيد حياة المزارعين يشقّون الأرض.. ويوزِّعون المياه.. ويجنون بعض الخضراوات والأثمار.. وبجانبهم النساء والبنات يساعدنهم في كل شيء.. بل إنهن في واقعهن العملي إنما يقمن بالقسط الأكبر في حياة البيت والبستان اليومية.

ولئلا أكون مغالطاً نفسي في حقيقة شعورها ومرده فإن اختياري للجلوس بجانب البئر بالذات إنما كان لاستجلاء جمال ودلال العذارى يردن الماء.. يملأن القرب ليعدن بها إلى الدور.. والبئر وجواره هو منتدى الفتيات القرويات يتناقلن لديه الأحاديث والأخبار مع لداتهن. وما كان، فإنهن بحكم الفراغ وفوران الشباب وناموس الاجتماع يتبادلنها في توثبات حلوة.. وتعليقات ساخرة.. أو ضاحكة.

وقد أصبحت أنا نقطة ارتكاز هامة في حياة البئر وقاصداته وجه الصبح، باعتباري غريباً عنهن ولدى الغريب دائماً جديد من الأخبار.. والروايات عن بلدان تعرف منهن بالسماع.. ويوماً بعد يوم كنت موضع أسرارهن.. ثم صرت محل معاكستهن المستترة في خفر مباح لا يتعدى القول الرقيق.. والدهشة يبدينها كلما أريتهن جديداً مما لدى من حاجات المدن البدائية كالمرايا التي ترتكز على قاعدتها وحلقات وحبات وعقود الخرز الملوّن.. وبعد أدوات وأمتعة الحضر المعلومة بما فيها الأقلام والمراسم والدفاتر والكتب والكراريس.. ومجموعات الصور والدمى المختلفة.. وكنت قد حملتها في حقيبتي الصغيرة الخاصة لمثل هذه الأيام..

وفي صباح يومٍ من أيام العمر التي لا تنسى.. جاءت مزنة التي حدثني عنها أحمد الجدابي رفيقي الغلام الحمَّار في سطور شعرية الألفاظ والتعابير.. مشحونة بحرارة الإحساس الفطري الشاب.. جاءت مزنة إلى البئر تحمل قربتها لتملأها.. دون أن تصوّب نظراتها إلى وجه معيّن من وجوه لداتها أو إلى وجه هذا الغريب الوافد.. ومن غير أن تفتح فاها إلا بتحية الصباح في صوت موسيقي لذيذ خافت.. قد تنحّت لها عن الدور

للسقيا من سبقتها فملأت قربتها بخفة وحملتها في رشاقة.. وغابت بها في نشاط..

وما كادت تغيب عن أبصارنا ـ حتى وردت سيرتها نتفاً من هنا.. وهناك.. وأنا أستزيد الشرح واستحث على الإسهاب إلى أن تكاملت صورتها داخل إطار حياتها المستقلة.. ولقد رجعت يومها مبكراً للدار بنفس ما يشبه الزلزال فعلاً.. فقد سرت بدمائي حرارة مستحبة.. وفي قلبي وجيب جديد.. وبجسمي خدر حلو.. ولم يفارق عيني منظرها.. منظر مزنة.. هذه التي قال عنها أحمد الجدابي أنها الزهرة البرية الأولى في وادينا.. وادي الأعمق..

(١٦)
آباء وأبناء

إن مزنة نادرة حقاً.. لا يمكنك أن تصفها بما تصف به الآدميات من حيث السن والوصف والمقاسات والطول والعرض المتبعة والمرعية كأساسات أولية حتى في مسابقات الجمال..

إنها تبهرك جملة.. وفي الجملة تفصيلاتها تأخذ ببصرك فتستديمه لديها.. فيديم النظر دون المام تعريفي محدد.. ما أن وصلت المربعة ـ أي الدار ـ حتى كنت أردد دون وعي مني مع ابن الرومي بعض أبياته في وحيد.. وحيد المغنية:

يا خليليّ تيمتني وحيد ... ففؤادي بها معنّى عميد
طفلة زانها من الغض قد ... ومن الظبي مقلتان وجيد
ليت شعري إذا أدام إليها ... كرة الطرف مبدء ومعيد
أهي شيء لا تسأم العين منها ... أم لها كل ساعة تجديد
وجهول بحسنها قال صفها ... قلت أمران هين وشديد
يسهل القول أنها أحسن ... الأشياء طرا.. ويصعب التحديد

* * *

لقد عرفت أن مزنة تعيش مع أمها وجدتها لأبيها ومع أخيها الصغير مرزوق.. وأن مورد حياة هذه العائلة بجانب ثمرة البستان الصغير البعيد عن مسكنها بالوادي.. إيجار المنزل الذي خلفه جد مزنة في مدينة الطائف قريباً من قهوة القزاز المشهورة وبيت آخر موقوف على العائلة في المعلاة.. في مكة.. وكان جدها أحد كبار الأشراف في أيامه.. وأنها تقرأ وتكتب.. وهذا الوصف بالنسبة لي كان أهم الأوصاف.. إذ اعتبرته نوعاً وثيقاً من صلة القرابة الفكرية بيني وبينها فيما قدرت.. وأنها تحاول مع قيامها بتعليم أخيها وبعض الصبية من جيرانها ببث نوع جديد على القرية من التطلّع لما وراء حدود الوادي بين أترابها بما تشيع في جلساتها الخاصة الرائفة من أفكار وأحلام.. وكانت لها رغم هذا حكاية غرام.. قصتها عليَّ سليمة غير مشوهة، ذات يوم بعد أن ربطت بيننا مناسبة عابرة.. جاءت صدفة من الصدف الحلوة مما أكد لي من وقت مبكر.. ميزة الصدف في حياة بني الإنسان بل والأسرة الحيوانية بكاملها؛ حتى علمت بالقراءة والسماع فيما بعد أن معظم حوادث اكتشاف الجرائم والسرقات ـ مثلاً ـ إنما يتم بصدفة معيّنة في أغلب الحالات.

فبخروجي في اليوم الثاني من الدار الجدابية بعد صلاة الفجر.. صادف أن رأيت على خلاف عادتي أن أجعل نزولي إلى البساتين فالبئر ظهر الدار التي تنزلها بدلاً من دربها المطروق أمام واجهتها حيث يقع الباب فالحوش الكبير. ولم أكد أصل إلى ظهر البيت حتى تبينت لي خلفه مربعة صغيرة حلوة ورشيقة.. حلاوة ورشاقة ساكنتها ـ مزنة ـ مزنة التي كانت ذلك الوقت نفسه تتخذ طريقها المغاير لجادتي اليومية إلى بستانها. ولا أدري كيف نطقت بتحية الصباح التي أجابتني عليها برقة وباعتداد وفصاحة والتي ربطت بيننا الحديث والتعارف فالاصطحاب ـ ذلك اليوم.. والأيام

التالية شخصياً. . وفيما تلاها من أيام. . فكرياً. . ودون انقطاع عن التفكير فيها. . تقريباً. . وبما أن لمزنة معي قصة أخرى غير قصة الجبل الذي صار سهلاً. . كما أنني لا زلت احترم غرامي الأول رغم احتفاظي به في قلبي، وفي كراسة صغيرة ذات غلاف وردي جمل. . فإنني أحتفظ به ذكرى خاصة. . غير مبعثرة الأسرار ترد عرضاً في سرد حكاية غير حكايته مستقلاً بها بالذات. واستمراراً للسير في خطنا الأصلي العريض. . فقد فرحت جداً حين قرر الوالد ـ ثاني يوم ـ لوصولنا أن تمتد إقامتنا بالوادي بعد أصر على ترتيب قيامنا بجلب كذا. . وكذا من الميرة من الطائف ـ وشراء ـ كذا وكذا من الوادي نفسه ـ وكذا ـ من الطائف هما الأرز والعدس. . والسكر. . والبن. . والتوابع. . كذا من الوادي مع خراف متوسطة العمر. . والحجم. . وتيس. . صغير السن. . ووافق الجدابيان وأهلهما على ذلك. . وعلى استقلالنا في مربعة صغيرة متصلة منفصلة بدارهما وبحوشه الكبير. . وكان هناك شرط واحد هو حضورنا الحفلة الليلية التي ستقام ليلة الجمعة بالوادي فرحة بالعائدين باعتبارنا ضيفي الشرف فيها. . فكان لهما ذلك. وقبل أن نحضرها لا مناص من القيام بقفزة باراشوتية سريعة ترتبط دواعي سردها بالسر في قرار الوالد مدة إقامتنا بالوادي. . وتتلخّص تلك الدواعي حسب أهمية حيثياتها في الآتي:

أ ـ شعوره بالاستفادة الصحية من البقاء هناك. . لكلينا. .

ب ـ ترحيبي الحار بتخصيص وقت طويل نوعاً ما لتسميع القرآن له فهو أحد الحفظة المجيدين والذين لا ينفكون لترسيخ الحفظ يعيدون تلاوته يومياً.

جـ ـ مع استعدادي لإعادة الحفظ. . من جديد. . بحفظه عليه. . بواسطة تلاوة ما تيسر منه.

د ـ إحساسه برغبتي في البقاء بالوادي أطول وقتٍ ممكن.

هـ ـ صلة الأبوة والبنوة القوية والمجرّدة من أي غرض مادي بالنسبة لأجيالنا السابقة.

وأتعشم ألا يعتبر ما ورد في البند الخامس من هذه الحيثيات تعريضاً بالجيل الصاعد اليوم وتجريحاً لمركز قداسة الأبوة في نفوس أبنائه كما تفهمها أجيال الأمس.. وإن أكد الواقع في قسوة أن ارتباط الأبناء بآبائهم اليوم إنما يرتبط بحكم مادية العصر بسلسلة مادية بحتة.. وإن كنا نحافظ على تغليفها بورق من السلوفان الناصع وربطة حريرية ناعمة خشية اهتزاز رابطة الأبوة والبنوة.. فأصبحت الصلة.. فالحب بمقدار ما يعطي الوالد للولد.. سيارة.. أو بدلات جديدة.. أو رواتب مُدرِّسينِ خصوصين ومصاريف جيب شهرية ـ أو.. أو ـ إلى آخر القائمة الطويلة البنود والباهظة التكاليف..

وأعتقد من جديد.. أن بدعة تغرب الأولاد خارج الديار.. لطلب العلم العصري.. قد خفف من أواصر الحب.. العذري..! لأن البعيد عن العين.. بعيد عن القلب كما يقول مثلنا الشعبي العتيد.. وأن الأب الآن قد أضحى بالنسبة لولده وفي نظره.. أمين صندوق العائلة.. ونكتفي بهذه الهمهمة.. في سطورها الرمزية القصيرة.. للإشارة إلى علاقة الأب المادية بأبنائه من أبناء الأجيال الصاعدة اليوم للتفرقة بين من كانوا يشاركون آباءهم المسؤولية من سن مبكر.. ومن أصبحوا يعتمدون عليهم حتى بعد أن تطر شواربهم.. ويغطّي الشعر عوارضهم.. مع استمرارهم على النداء التقليدي الحديث والمحبب في أسماع والديهم بالكلمة السحرية "بابا!" يرخون بها الأعصاب.. ويدغدغون بحلاوتها الإحساس.. فإذا كل شيء في سبيلهم من والديهم لهم يخف.. ويهون..

(١٧)
الرقصة خليطي والعشوة سليق

ونعود لما كنا في سبيله.. ففي ليلة الجمعة ـ كان موعد الحفلة الجماعية التي انتظرها الكل والتي تقام عقب كل موسم حج ـ في الوادي ـ عُقب أوبة شبابه من مكة، منى، وعرفات، وبعد قيامهم بأعمالهم الموسمية، وأبرزها.. يا رويكب.. يتكسبون بها ومنها ما يكفي لشراء الكسوة، والحلى الرخيصة الأثمان، والفريحة لأهاليهم..

وفي الميعاد ـ بعد صلاة العشاء ـ جئت إلى مقرها مع الوالد ـ كضيفي شرف ـ حيث رحب بنا الحاضرون ترحيباً حاراً.. صادق الفرحة في تعابيره.. وفي إحلالنا مكان الصدارة من المجلس الطويل الحاشد.. وكانت ليلة عمر حلو زاخر بالمعاني.. وبالذكريات لا تمحوها.. ولم تمحها الليالي الكثيرة التالية في الحياة المقبلة.. رغم تميّز تلك الليلة الأعمقية بالبساطة والفطرية ـ وحفول ما تلاها بالبدائع، وبالروائح تجلوها القدرة المالية.. ويطرّزها الفن المدرسي، وتضفي عليها الحضارة طابعاً.. كلحن مميز.. ممتاز!

وابتدأ السمر بالقهوة ـ وبالشاي ـ يدوران بنظام، وبحساب، وبطابع خاص.. تتلوها الفريحة من حمص، ولوز، وفشار، وحلوى، في أطباق

ـ تباسي ـ تتناولها الجماعات في أناة وصبر تتخلَّلهما من الأحاديث.. حكايات، وقصص، وروايات.. حتى ابتدأ الهزج.. والضرب على الدفوف، فالرقص التقليدي تتراوح رقصاته الحلوة البديعة بين الحماس.. والدلال.. والانسجام، والاندماج، وكان أبرز ما لفت نظري، وملأ مجامع قلبي، حتى ثبتت ذكراه بذاكرتي حتى الآن من صور رقصات تلك الليلة رقصة (الخليطي).. وابتدأت هكذا:

اصطفت جماعة من شباب الوادي صفاً طويلاً على جانب من جوانب المجلس بالقاعة الطويلة الفسيحة.. كما اصطفت قبالهم جماعة من الفتيات الملثمات ـ اللثام أشد إغراء من السفور. وقد قام منفرداً على رأس طابور الشبان فتى بارز الوسامة؛ حلو القسمات واللفتات، كما قامت منفردة على صف العذارى فتاة لاح مما لاح فوق لثامها ما يؤكد حسنها.. وجمالها الفائق وعودها اللدن الممشوق.

وافتتحت الجماعة الرقصة الأهازيج.. ثم تلاها الشاب المنفرد بارتجال بعض الأبيات من الشعر الحميني الرقيق.. تجيبه على كل قطعة منه بنفس البحر والروي الفتاة المنفردة في ذات الموضوع.. وتتلوها الجماعة بترديد المقاطع.. يكررها الصفان من الشباب والشابات.. كلازمة مطردة.. في توافق.. وفي تناسق جماعي مضبوط.. أخاذ حتى إذا جاء دور الرقص طبيعياً بعد أن رجفت القلوب وحميت الدماء.. ودبدبت الأقدام فوق الأرض منسجمة مع دقات الدفوف.. ونقراتها المميزة.. تداخل الصفان.. دون التحام.. في إقبال وإدبار، حيث تنسل كل فتاة من الفرجة المقدرة لها بميزان وبحساب بين كل شابين.. وهكذا الحال بالنسبة لكل شاب بين كل فتاتين.. في صف الفتيات..

وكانت رقصة الخليطي الجميلة.. لا تستطيع الألفاظ الواصفة المصورة حلاوتها، لا تتم إلاّ برؤيتها والتمتّع بها مشهداً وحساً.. ووجوداً.. خاتمة الرقصات.. دارت علينا في أعقابها من جديد أكواب القهوة والشاي.. دون تباسي الفريحة لقرب ميعاد العشاء..

وجاء بعد فترة حلوة تخللها التعقيب والتعليق على ما كان.. دور الطعام.. وكانت الأكلة عربية شهية.. هي (العربي.. المعروف أيضاً باسم السليق) ولوديان الطائف وضواحيه شهرة ذائعة الأصل في جودته وإتقانه.. كما كان له بها كلها تقليده المتبع المنطوي على كثير من المضامين والمعاني.. فعندما يمد السماط.. وتوضع تباسي الرز في نظام ومقاس محسوبين بالنظر إلى المائدة وتقسيماتها يبدأ المضيف بعد ذلك مناسبة الدعوة عملية تقسيم اللحم على الآكلين حتى يكون لكلٍّ شخصٍ قسمه المحدد منه ويصطفى الضيوف الأوائل بالطيبات منه.. وتلك طريقة عربية الأرومة فيما قبل غربية المحاكاة الأسلوبية فيما بعد في المطعم الأوروبي الحديث، حيث لكل فرد طبقه الخاص ونصيبه المعلوم من طلبه..

ولعلَّ ميزة الطريقة على أساس استقلال كل طاعم بنصيبه.. إنها تحث حثاً عملياً على آداب الأكل.. فلا ينظر من كانت عادته في تناول وجبته التأنّي وإجادة المضغ باطمئنانه على نصيبه إلى لقمات أو لقيمات سواه التي يسبقه في تناولها خطفاً متواصلاً.. كما أنه لا يخشى حومة ذلك السباق القتال عندما تجمعه الصدفة وسوء حظه في صدور هذا النظام بأبطال السباق اليدوي والبلعي السريع الازدراد المتواصل! فيضيع ضياع الأيتام في مائدة اللئام..

وبدون إسهاب.. أو تعرض للتفاصيل التالية.. فقد انتهت تلك الليلة الساحرة لتكون في صورتها الدائمة بنفسي وبخاطري محسوبة علينا من ليالي العمر ـ فعلاً ـ دون خطأ في حسابها كذلك، أو تساهل في عدد أرقام أيامنا فيه ـ كما أنها ليست جبر كسر لما فاتنا ويفوتنا في حياتنا.. لغة في القناعة.. وأسلوباً في العزاء المعتاد..

ومجرّد ورود كلمة القناعة بارزة المضمون في سطرها السالف يستدعيني تحديد مركزي منها منذ صباي فأنا.. من يومي.. في الميدان الفني.. ومجالاته شره إلى حدٍّ كبير.. مسرف في استيعاب قسمي فرصة يهتز لها وجداني.. وتضطرب مصطرعة فيها روحي مع دوافعها ودواعيها.. فإذا أعجبني شعر شاعر حفظت ديوانه من الجلدة للجلدة كما كنا نقول.. وإذا استهدفت مطلباً لا أتوانى دونه كأني أحد أفراد معركة السلاسل أمامه.. وإذا استعذبت مجلس حديث فن ـ أو بحث ـ أو طرب كنت آخر المشبشرين له.. وفيه.. ولقد كانت لي في صدر شبابي وشباب الأخ الأستاذ حمزة شحاته ليالي نبتدئها من نهارها بملاحاة سقراطية أو أفلاطونية.. أو سفسطائية؛ وهو من أقدر الناس على خلقها والإدمان عليها ـ فلا تنتهي إلاّ في مشارف الفجر.. وضواحي النهار التالي، كما أننا حينما كنا نتقابل أمام صديقنا المرحوم الأفندي أبدو! ـ على رقعة الشطرنج لا نفارقها إلا بتهديد من ربة البيت.. بالاستنجاد بمركز الشرطة القريب من الدار.. ليذهب أحدنا مكرها إلى داره.. وهكذا.. كذلك ـ فيما عدا ذلك ـ ومعذرة لتكرر هذه الذالات المؤكِّدة شره الطبع الفني ـ في طبيعتي من صباي.. حتى بالنسبة لاستعمال أسماء الإشارة..

وللتاريخ الأدبي.. فقد بلغ بي الأمر في مستقبل أيامي أن سجلت رأيي.. كمظهر للحرد المتواصل من الجملة المتواصلة السرد على الأفواه ـ القناعة كنزٌ لا يفنى ـ في كتابي ـ المطبوع ـ كما رأيتها ـ وديواني قالوا وقلت المخطوط منذ ربع قرن غير مكسور.. في هذه الرباعية الشعرية الناصعة البياض:

قالوا: القناعة كنز قد طاب في النفس.. غرسا
أغلى الحياة ـ وأزجى بها السعادة.. همسا
فقلت: هذا عزاء يدسه آل الضعف.. دسا
ما كل من كان يرضى بأن يكون.. الأخسا!!

(١٨)
الشيخ عوده
أوده . . أوده

وهكذا . . فأنا لم أقنع ليلة الخليطي . . كما سميتها فيما بعد بما كان فيها . . وقد نبض شبابي وفار بهمهمات السمر . . ودمدمات الرقص العربي الساحر . . فقد حرّضني رفيق الضرب وسميي ـ أحمد الجدابي المكاري الصغير بأن أستأذن من أبي لأبقى معهم هم جماعة الشباب بعد انصراف الكبار لأستمع إلى دنيا الأسرار الشابة . . وقد كان . . فبقيت لأروي خيالي بما سمعته من قصص إنساني بعضها ما كنت حديث عهد بقراءته في روايات الجيب يقص واحدة منها شاب من هنا . . وثانية شابة من هناك . . حتى إذا تدلّت لنا خيوط الفجر لملمناها بأجفاننا في خدر لذيذ أسلمنا نعاسه بعد صلاة الفجر، إلى نوم عميق . . بعد أن اكتشفت أن هذا الشاب ابن الجبل ووادي الأعمق محدث لبق ساحر . . وشاعر فطري . . وكازانوفا يشار إليه بين لداته بالبنان . . فزادت الصفات الجديدة من توثيق الصلة بيني وبينه . وكما توثقت أواصر الزمالة والصداقة بيني وبين أحمد الجدابي الصغير . . فقد توثّقت الصلة في الأيام التالية وفي الوادي نفسه بيني وبين

أكبر رجاله.. وهو الشيخ (عودة) فأصبحت أدمن الجلوس إلى هذا الشيخ أسمع منه عن ماضي عشيرته ـ وعن حاضرها ـ يروي فيصور ناطقة معبّرة عن سلوك ممثّلي السلطة البائدة من الأتراك ما يضحك ويذهل..وهي كثيرة معروفة في حينها للبوادي والحواضر.. وقد زالت بكل ما فيها.. من خير أو من شر.. وكان الشيخ عودة.. كثيراً ما يذكر مزاياهم بصدق وإخلاص ـ كما يتفكه بما عداها في فطنة وإدراك.

وكان راوية فناناً أصيلاً.. فقياس الفنان في نظري قدرته على التقاط الصورة ـ الصورة التي تليق وحدها بأن تكون قاعدة رواية.. أو مادة حديث.. أو أساس عمل فني رائع.. أما حين يتناول سير بعض الأتراك ـ سيرة الأشراف فقد لاحظت جفاف حلقة لدى سرد بعض معاملاتهم للوادي وأهله، بعد أن تحمرّ عيناه غيظاً وتغيم نظراته أسفاً، وتنتصب سبابته في الهواء تهديداً لأشباح تطارده ذكريات أهليها الذين زالوا عن دنياه. فيكون كطاعن دنكشوتي في الهواء.. وقد فاتته المعركة ذاتها.. فاستعادها خيالاً.. واجتراراً لما حفل به ماضيها.. مرضياً بما يعرب فيها يعرب عنه غريزة الخيلاء اليدوية ـ ألفت رؤية السراب.. الفتها رؤية المناهل والغدران.

ويبلغ الشيخ عوده من العمر الثمانين ـ تقريباً ـ فهو في ضواحيها القريبة بالتأكيد كما يظهر من تواريخ أحاديثه وحوادثها.. يؤرّخ بها ميلاده على وجه التقريب وليستعرض بعدها صباه.. ويفاعته وشبابه.. حياة حلوة حارة.. تهبه الحماسة والتدفق والانطلاق. حتى تنتهي به إلى التأوه متأففاً من كهولته.. كارهاً شيخوخته تمشي الهوينى في بطء.. وجمود وفراغ نفسي قاتل.

وأشهد أن تأففه العابر.. لا يطول.. لم يكن من ذلك النوع الذي

عناه أبو الطيب المتنبي في بيته المعروف:

وإذا الشيخ قال أف.. فما مـ ـل حياة وإنما الضعف ملا

وأؤكّد أن الشيخ عوده كان يعيشها ـ الحياة ـ بالطول وبالعرض دون حدود مرسومة لها.. حتى وإن كانت حياة تتناسب ومساحة الوادي نفسه بدليل أنه في هذه السن كان قد أعرس منذ شهور قليلة بزوجته الشابة زينة التي كان يتخذ كفنان بارع من شبابها مادة فكاهة وسخرية وتمثيل حين يقارن بينها ـ جديدة ـ وبين زوجته القديمة ـ في كل شيء؛ في النطق؛ في المشي؛ في النظرات.

وأغرب ما في أمره حينذاك ـ أنه يقرر في حسم وتأكيد أنه لم يخل قط بواجباته الزوجية والعائلية المتسلسلة الأداء حتى أيام أحاديثه المكشوفة معي.. وإن جاءت تلك الأحاديث في هيئات رموز.. واستعارات.. وكنايات بارعة.

وإياك.. وأن تتعرض بصفة خاصة لرجولة الشيخ عودة في هذا الميدان الجنسي.. فهو يؤكّد لك بكل اهتزازات جسمه وانتفاضات شعرات لحيته أنه لم يزل فتى في هذا الميدان.. فتاه الحريص جداً أن يكونه حتى آخر قطرات حياته.. مما كان يدفعه تعزيزاً لما يدعى أن يتبسط في أحاديثه الخاصة معي بما قد لا يقال، أو لا يليق على الأصح أن يقال.. مما جعلني بما يشرح ويفعل أعتبره حينذاك ـ واعده فيما بعد ـ أحد كبار أدب الفراش كما يسمّى العقاد رواة ذلك النوع من الحديث، والرواية.. والأقاصيص..

ولقد علّمني هذا الشيخ من وقت مبكر أن من كبريات دعامات

الحياة في الحياة الجنس ازّا عليها، وسعياً في مناكبها ـ ومهمازاً للرجل في كل تصرفاته الواضحة والخفية..

ومن الغريب أن يحتفظ الشيخ عودة رغم الثمانين عاماً.. أو ضواحيها.. بكامل أسنانه، وجميع رباعياته وأنيابه.. بيضاء ناصعة البياض بفعل السواك كما يقول.. فهو يقتني له مجموعة أنيقة من أعواد الأراك الرفيعة المهذبة يعتني برؤوسها المخمخة، عناية شباب هذا الجيل برؤوسهم في تواليتاتها المتنوعة التنسيق.. ومع نصاعة تلك الأسنان والأنياب فإنها قوية راسخة بفضل تناول اللحم نهشاً ومضغاً ومعاناة.. لا ينقطع عنه داعياً.. أو مدعواً.. لتناوله.. أو منفرداً وحده.. كما يروى.. بخيال طلي ـ رضيع.. يتسلّى بلحمه الطري تصبيرة الوجبتين الأساسيتين ـ يوم يعتكف في بيت الجديدة كما يسمي زوجته الأخيرة الشابة..

ولقد تذكّرت بعد أعوام طويلة أسنان الشيخ عودة وعامل بقائها كذلك ذات ليلة في جنيف حيث كنت مع أخي الصديق عمر عبد ربه رفيقي في الرحلة لسويسرا.. في عام غير بعيد بأحد أماكن السمر المحترم بها.. وكان جيراننا بالمائدة ثلاث نسوة من اللاتي تسمّى الواحدة منهن ـ نصفاً ـ ولما كان الصديق مشهوراً في ضحكه بقهقهاته المدوية التي لم يستلفت نظرهن منها إلا أنها عامل مباشر في إبراز أسنانه البيضاء الناصعة تشبه في بياضها شعر رأسه المبكر البياض.. فإنهن لم يطقن السكوت فقد بادرت إحداهن نائبة عن زميلتيها بسؤاله عما إذا كانت أسنانه طبيعية أم تركيبة؟ فأجابها بأنها طبيعية طبعاً وإن شاءت الوثوق منها فما عليها إلا أن تضع أصابعها فيما بينها.. وبالاستعلام عن السر في بقائها على حالتها شرحنا لهن أننا من أبناء الشيخ عودة.. في بلادنا.. التي أكل أبناؤها

اللحم نتشاً.. ومشقاً.. ومضغاً.. ومعاناة..

وبامتداد الحديث ـ بواسطة مترجمتنا الكهلة ـ في تلك الليلة مع جاراتنا غير الحسناوات فقد اكتشفنا أن معظم الغربيات والغربيين.. وكل الأمريكيين ـ من قبلهم ـ والأمريكيات ذوو أسنان تركيبة.. بل أن كثيراً من شاباتهن يخلعن جميع الأسنان الطبيعية لعمل ـ طقم من البلاستيك ـ مزروعاً، أو تركيبه.

(١٩)
عسل وشعر ومطر

ووصلاً لما انقطع من حديث، فإن على العودة من جنيف ـ للشيخ عودة في وادي الأعمق.. لأقول أن للشيخ مع ما ذكرت في جلسته اليومية بين أولاده.. وأحفاده.. سمتاً.. وجلالاً ومهابة.. يضفي عليهم وعليه الحنان الطبيعي الصادق رقة إنسانية نادرة.. حباً فطرياً نابعاً من قلبه الكبير.. وهو يسمّي هذا الحنان والحب لعائلته ولأهله بواديه الحبل الدموي اللحمي الدقيق يربط بين الكل وثيقاً كلّما أكثروا التحلق حوله.. لتشيع بينهم يومياً وفي كل ساعة ودقيقة من تلك الاجتماعات الألفة والمحبة.. تخلقها وتؤرثها الرؤية والاختلاط.. والاجتماع.. والمشاركة المستمرة في الأحاديث الخاصة والعامة كل ليلة.. وفي كل يوم.. وبإيجاز.. فإن من رأي الشيخ أن دوام الاجتماع بالأهل، وبأفراد العائلة، من الأولاد والأحفاد سبب وقوة لدوام المحبة كما هو وسيلة ورسوخ لأواصرها بما تشتمل عليه من ألفة وامتزاج وتطويق مستمر بالذكريات الصغيرة، والكبيرة المتصلة الحلقات ـ وعلى العكس ـ فالبعيد عن العين بعيد عن القلب..

وفي ضحى يوم.. من أيام الوادي الأخضر الجميل.. أصرّ علينا

الشيخ عودة، بعد أن حضر من بستانه إلى مكان نزولنا ـ الوالد وأنا ـ ليرينا.. منحلته.. فهو حفي بها؛ وهي ذات نتاج وفير من عسل أبيض بشمعه.. وأنه لعسل مشهور في واديه وفي كل الأودية القريبة والبعيدة ولدى تجار مكة والطائف، حيث كان عسل النحل الشمعي الأبيض مطلب الطاعمين الذواقين في كل المدن.. عادة درج عليها الناس في وجبة الفطور.. أصلاً.. ومع بعض وجبات الغذاء.. كالندى.. والسلات.. وهو ـ العسل ـ مصدر رزق كذلك لتاجره.. كما أنه مبعث قوة.. وسلامة بدن لمتعاطيه مواظباً عليه تالياً أبداً ما ورد عنه بالقرآن الكريم "فيه شفاء للناس".

ولقد أجبنا دعوة الشيخ عودة، فذهبنا معه بعد تناوله القهوة لدينا حتى إذا وصلنا بستانه الجميل.. بما حوى من شجر وثمر وركبان زمردية وقدّمت لنا القهوة عربية ذات نكهة وطعم فريد قادنا إلى المنحلة التي غصت بأسراب النحل.. ورتبت ترتيباً بدائي الصنع إلاّ أنه كان واف بالموضوع.. وتناول الشيخ كل شيء بالشرح من النحلة العادية إلى اليعسوب. كأنما هي أفراد أمة هادئة مطمئنة قانعة يسعى أفرادها مؤتمرين بأمر قائدها كل في عمله المفصل من قبل الشيخ عوده.. حتى الزهرات وأنواعها وصف صلتها بالنحل امتصاصاً ورشفاً كطعام سائغ لأسرابه.. ثم عقب على بيتها مقاماً ومثوى إنتاج وفير.. وأسهب شارحاً كل ذلك في بيان وذلاقة الخبير الدارس فطرة وممارسة لما كان بشأنه وشأن التعريف عنه.

وأخيراً تكرّم علينا.. فأهدانا قطعات شمعية من منحله وقد استقر العسل داخلها في بيوته الهندسية تتجاور في صنع وتركيب تعجز الأيدي

الماهرة في عمل الدانتلا عن محاكاته لإبرازها تحفاً ممتازة.. فسبَّحنا وكبرّنا بجلال الخالق الأعظم يهب مخلوقاته من بشر وحيوانات وطيور وهوام وحشرات وجماد بعض أسرار صنعه وخلقه.. دروباً قصيرة إلى معرفته.. بآياته.. جلّ وعلا.. في ملكوته الأسمى.

وما أن انتهينا من زيارة المنحلة حتى غام الوادي.. ثم انسكب الغيث في خيوط من ماء.. وحبات من برد شاهدناهما من كوة من دار الشيخ.. صورة من فرح الطبيعة ومن مهرجانها الحافل الراقص بأشجاره.. والضاحك بأوراده وبأزهاره.. وكأنما جاء المطر تزكية لدعوة الشيخ عوده الذي بلغ به السرور مداه فأقسم وأصرّ أن يكون غداؤنا في بيته.. وتحت عريش العنب بعد أن يصبح دفق السماء رذاذاً منثوراً وقد كان له.. ولنا.. ذلك.. فالمطر في البساتين عيد ـ وأي عيد.

ولن أنسى ذلك المنظر الخلاّب في يومنا الساحر.. وقد دبّت حلاوته في نفسي واستقرّت في جذورها حتى جاء يوم جديد من أيام مستقبلي المجهول فإذا المناسبة العابرة فيه تبعث في خاطري تلك الصورة القديمة المختزنة فيه جديدة مكرّرة في قطعة شعرية من موضوع قصيدة ذات كيان مستقل بها حيث أقول:

واستبان الغمام واستطبنا المقام ... تحت سقف العريش

ترمق الماء.. والنسيم ... في الجنان..

عانقا الخلد ـ مستديم ... يلعبان..

في اصطفاق وفي خفر! ... والنغارى.. تجوب

والقمارى.. تلوب ... بين خفق.. يذوب

في ثغاء القطيع ... ما انقضى.. ماونى.. ما فترا!

والحدادي.. تدور والقطا والصقور
حول باب.. وسور واستكن الجميع
خلف غصن.. ورا حجر!

وهكذا ـ فكأنما كان ذلك اليوم الشعري في بهجته.. وأنسه.. ومرائيه.. حفلة وداع طبيعية لإقامتنا التي طالت.. وإن مرّت بنا من الطيوف.. بوادي الأعمق.. وادي الجمال.. والخضرة.. والحب.. في نفس شاب عانقه طويلاً وتنسم شذاه ملياً.. فامتزج به كل ما فيه.. هوى.. وذكريات.. وامتداد خيال.. وحياة.

(٢٠)
يا من شاف الولد الضائع

وكذلك.. فإنني لن أنسى ما حييت ليلتنا الأخيرة الحلوة في الدار.. وفوق قمة الجبل.. فإننا بعودتنا بعد ذلك اليوم الشعري ببستان الشيخ عوده وجدنا الجدابين وجيرتهما ـ بما فيهم مزنة صاحبة القصة المؤودة.. وقد لبثوا في انتظار عودتنا ليفاجئونا بأكلة طريفة، وظريفة.. أرى تسجيلها رغم مجافاة الذوق العصري اليوم لسماعها حديثاً غير جائز.. أو لقبولها واقعاً غير جائز الحدوث في دنيا الأكلات.. إنها أكلة الجراد المشوي..

وتستدعيني الأمانة التاريخية ـ كما يقول بعضهم ـ أن أقوم باستطرادة قصيرة من استطراداتي المألوفة هنا ـ والمشروطة على القارئ من بداية الأمر.. فقد كان الناس قديماً في بلادنا وفي أيام الأمطار خاصة.. يأكلون الجراد مشوياً.. أو مقلياً.. تتولى ربات البيوت شيه أو قليه بالسمن البري قلياً فنياً خاصاً.. ليوضع بعد ذلك في أطباق ـ صحون أو تباسي صغيرة ـ تحف بها أحقاق الدقة المكوّنة من الفلفل الأسود والكمون والملح والقليل من الحبق أو النعناع ـ ليبتدئ الطاعمون تناوله.. حبه بحبه.. في تلمظ ولذة وسباق.. تماماً كما هو الحال بالنسبة لآكلي

الضفادع اليوم في أرقى البلدان الأوروبية..

وربما كان أكلنا للجراد نوعاً من محاربته.. سلاحاً جمع بين الأقتيات به.. والقضاء عليه.. كما أننا بتناوله إنما نتناول وجبة مركّزة من المزروعات خضراوات وفواكه.. أما اليوم فلن يمدّ إنسان يده إليه بعد أن أصبح مسموماً بما يرشّ عليه من هذه المبيدات السامة له.. ولعلّ بعض سكان البوادي في أي صقع صحراوي ما يزالون مواظبين على عادة بادت.. غذاء ميسوراً في بعض الحالات يعز فيها الغذاء الميسور.. لتمتد العادة بحيزها الضيق تخليداً لقانون الوراثة المتداول.. والدائم.. وبعد.. فلقد بتنا ليلتنا ـ بعد أكلة الجراد ـ على أهبة السفر.. في جو حالم شاعر.. راقص.. تحلو أوقاته الأخيرة حلاوة الثمالة تختصر اللذة السابقة كلها في قطره..

وفي فجر اليوم التالي.. ناعساً في عيون الراحلين والمودعين.. خافقاً باضطراب وعنف في قلب يافع حساس سأل والده الطيب يوماً ما أن يقعد ما قصد ليرى ما يرى ـ ابتدأ الركب من الوالد ومني ومن الجدابين أشباحاً أربعة يتجه لطريقه في تمهل.. وكلال.. وتلفت معبّر كان إنما هو الذي عناه القائل:

وتلفتت عيني.. فمذ خفيت عني الطلول.. تلفت القلب

ولقد كانت تلك لي بالذات حالتي وحقيقة مشاعري.. نحو ما تركت.. مشدوداً إليه.. أسير بخطى ثقيلة.. وأنا أتمثل فعلاً.. لا تصوراً.. بقول الشاعر:

وسرت وسيري خطوة.. والتفاتة إلى فائت مني أرجى ارتجاعه

وإني لأحس أن الجبل قد أصبح جزءاً من روحي.. بهامته المرتفعة.. بودیانه المنبسطة.. بكل جزئياته ومن وما فيه.

ورجوعاً إلى أسلوبنا الحر غير الملتزم في الحكاية عن الجبل الذي صار سهلاً. أرجو أن أطوي تفاصيل بقية الرحلة البسيطة المتواضعة قضينا أوقاتها بين الوديان الأخرى مروراً بها وبمدينة الطائف ذاتها إقامة.. لأعود فجر يوم رائق إلى هامة الجبل تمهيداً للعودة..

وفي نفسي الآن حنين لأن نقص بقية الرحلة إشباعاً لنهم ـ وإرواء لغليل قديم ـ حديث ـ لولا أنني في حكايتي هذه إنما استهدف الجبل وحده ـ نقطة ارتكاز ـ ودوران ـ وبداية للرواية وختاماً لها، دون شريك له ناء عنه، محافظة على السر بيني وبينه ـ ووفاء له بما وعدته في مدى سحيق غابر أن أسجل عنه أثره في نفسي.

ويطل علينا يوم ضاحك.. حين أتيناه في أعقاب رحلتنا البعيدة عنه.. بمقياس المسافة والأماكن نمشي الهوينا حيناً.. ونستحث الحمير أحياناً في الصباح الباسم.. بطلوع الشمس الذهبية الأردية والألوان.

ولا زلت أذكر الإشارة الصادرة للركب من الجدابي الكبير وقد وقفنا جميعاً فوق قمة الجبل تمهيداً للانحدار إلى قلبه.. فقد أومأ إلينا.. أن قفوا.. لتروا في السماء البعيدة من الأفق النائي هذه الظلة الكثيفة.. مفسِّراً لنا إياها.. إنها الندى فوق البحر وعلى صدر مدينتكم ـ جدّة ـ أم البحر.. والنافذة المطلّة على العالم الخارجي تصدر منها وتعود إليها هذه البيوت المائية التي تسمونها ـ البوابير! تحمل لكم ولنا ـ كما قلت أيها الورع الصغير مشيراً إلى ـ مع الخير والزاد ـ الخبر.. والصحيفة والكتاب ميرة للفكرة.. يرتقبها القارئ منكم على أحر من الجمر.

وكنت فعلاً قد حدثت الجدابين وسواهما بالوادي ضمن ما تحدّثت به وعنه ـ أنني وزملائي أبناء مدرسة الفلاح بجدة وأساتذتهم كنا نرتقب تلك الجرائد والكتب والروايات التي أحمل قسماً منها وقرأت بعض ما فيها.. بلهفة وشوق.. وظمأ.. شأننا في ذلك شأن الأساتيذ والتلاميذ والقراء في بقية أمهات الحواضر والبوادي من أبناء هذه المملكة العربية السعودية.. وبالأخص في الحجاز.. آنذاك..

فقد كنا والحق يقال نعيش تلك الأيام في منطقة فراغ داخلي غير منكور حتى لقد بلغ من هول ذلك الفراغ القاتل أن كنا نستعير الشعور.. ونستلف الأحاسيس من جيراننا.. فقد كان بين البلد الواحد الوفدي.. والحر الدستوري.. مثلاً والحليفي.. والنازي فيما بعد..

ولما كانت البواخر وحدها صلة الوصل بين الداخل الفارغ والخارج المكتظ فإن الناس كلهم كانوا ينتظرون قدومها بفارغ الصبر لذلك ولأسباب أخرى كثيرة أهمها الأرزاق ـ والأقمشة ـ والبضائع بأشكالها وأنواعها من الحقير التافه إلى الجليل الضروري الهام، واستدعت تلك الحاجة العلم الدقيق بمواعيد وصولها يحددها لهم ولطبقات التجار والجلابة والمتكسبين صوت المنادي في أسواق جدة وشوارعها الكبير.. وهو الشيخ صديق حلواني أشهر المنادين وأقدمهم.. وأرقاهم سمعة بصوته الجهوري الطليق.. ذي الأنغام المناسبة لحيثية كل باخرة.. ولمبلغ كل وكالة لها.. ينتقل من سوق لآخر، ومن برحة لسواها صائحاً بين الحشود الملتفة حوله من الكبار والشباب والأطفال المنطلقين وراءه وحيثما سار قائلاً باسم شركة البواخر المختصة بيوم النداء:

ياخوانا ـ يا أهل البلد.. الحاضر يعلم الغائب بوسطة خديوية..

الباخرة كذا.. تصل إلى جدة يوم كذا.. وعليها كذا.. فمن كان عنده صر.. أو بريد.. أو له بضاعة أو.. أو.. فليراجع بيت هنكى.. وإن كانت الباخرة هندية من الهند وإليها فليراجع بيت زينل.. وإن كانت عداهما فليراجع الوكيل.. فلان الفلاني والحاضر يعلم الغائب..

ولا غرابة في الأمر.. فلقد كان المنادي هو الصحيفة.. والراديو.. والتلفزيون اليوم.. فهو واسطة الإعلام الوحيدة ـ فيما سلف ـ وفي ثبوت رؤية رمضان، وليلة العيد، وسوى ذلك من الحوادث العامة والخاصة حتى الأطفال الصغار الذين يضيعون عن بيوتهم لهم نداؤهم الخاص: يا مين شاف الولد الضائع.

(٢١)
مذاهب وملامح

ولقد كان نداء المنادي ـ العم صديق حلواني ـ في جدة.. منطلق فرحة في حينه للقراء الذين كانوا ـ والذين أصبحوا في البلد فيما بعد أدباء كتاباً أو شعراء.. يتسابقون على عمال بيع الجرائد والمجلاّت والكتب.. وكان أشهر بائع محترم لها في جدة قبل أن يحبو الأصفهاني ـ أبو المقالب! ـ أو أن يبلغ الحلم ـ المرحوم الشيخ محمود يغمور الذي غدا فيما بعد ـ كناشر للثقافة في البلد ـ يسعى للتوزيع بعد أن كان يقصد في مكانه للاستلام ـ والتسليم ـ وتلك أمانة تاريخية تذكر فتشهر في باب الاطلاع والعلم والثقافة لهذا الرجل المحترم.. يمشي.. فتمشي المعرفة معه.. أينما سار..

مراعاة لذمة الماضي.. وإبراء منا لها.. فقد كان هناك ـ عكس اليوم ـ فراغ فكري كبير.. ملأته دون مزاحمة في الدرجة الأولى بالجريدة وبالكتاب مصر القديمة.. مصر الأصيلة.. مصر أم الأحزاب حينذاك وأم الجرائد يقوم على منابرها العقاد، المازني، طه حسين، التابعي، أباظه. والدكاترة زكي مبارك.. هيكل الأول الكبير بالطبع.. محمد حسين.. وغير هؤلاء.. وأولئك من كبار الكتاب والأدباء.. يعنينا منهم في هذا

المجال الصحفيون الأدباء الكتاب.. فالشعراء يأتي في طليعتهم.. شوقي، حافظ، الجارم، أحمد، نسيم، الطائف، محرم.. الخطيب.. والمطران.. وسواهم..

كما سدّت بعض المساحة منه الواردات المهجرية الفكرية عرفنا بها مذهباً في الأدب جديداً.. ولوناً قشيب الحلّة والرداء.. يعرض أزياؤهما المهجريون.. من أمثال.. جبران خليل جبران.. إيليا أبو ماضي.. نسيب عريضة.. ميخائيل نعيمه.. أمين مشرق.. وليم كاتسفليس.. أمين الريحاني.. وسواهم..

ولما كانت مصر القديمة هي الأقرب.. والأقوى.. والأفصح فقد سدّت معظم الفراغ في هذا الباب حيث أخذ الناس ـ كما قلت سابقاً ـ يستلفون الشعور ـ وتلك ميزة الفراغ آنذاك ـ لا آفته كما يوصف ـ فكان أن تسرّب لهم التشبّع هنا ـ نتيجة تلك القراءة ـ للأحزاب هناك.. فظهر من بينهم الوفدي والوطني والحر الدستوري.. و.. و.. وكان الجدل يثور.. كلما وصلت باخرة جديدة تحمل أخباراً جديدة تحفل بها أعداد الأهرام.. المقطم.. السياسة الأسبوعية.. وسواها من المجلات.. وتهدأ حتى تصل الباخرة الأخرى.. وهكذا ـ دواليك ـ كما يقول بعد المتدولكين بهذا التعبير!.

ومن هنا ـ كذلك ـ ظهرت المذاهب الأدبية.. وعلى رأسها مذهبا العقادية نسبة للعقاد والطحسنية ـ لطه حسين.. واللذين لا تزال في نفوس الكهول من أدبائنا رواسبهما.. وبقاياهما التي أخذت في الانقراض.. كما حيوان الدينصور. في آخريات حلقاته.

وذلك مع الرافعية المبرقعة التي طلع بها في آخر الأزمان أخونا

الزيدان.. وعقب السلامية الموسوية تقيد لها لأمد طويل الأخ الأستاذ حمزة شحاته ـ رد الله غربته ـ وتاب عليه من التوبة الأدبية لن تنسلح عنه مهما كابر.. إلا إذا انسلخ ناطح عن جلده بالحياة! ولا يسعنا هنا اليوم وقد تغمده الله برحمته ورضوانه إلاّ أن نسأل المولى له الغفران.

وتأتي بعدهما.. يوم أن كانت البواخر ينادي عليها الحلواني والمعرفة يوزعها اليغمور.. المهجرية يحمل أعلام مذهبها الأدب العربي في قلب الدنيا الجديدة ـ أمريكا ـ أعلام أدبها الجديد مشكورين مأجورين.. وهم من أسلفت ذكر أسمائهم مع سواهم من بقية أعضاء الرابطة القلمية وسواها.

ومن ذكرياتي في هذا الباب أن من أوائل المتمهجرين الشيخ السباعي المتحنجل صاحب الرفش.. مقتبساً إياه من.. (فهات الرفش واتبعني.. لنحفر خندقاً آخر.. نواري فيه موتانا).. وهي القصيدة المهجرية المعروفة وكان زميل شقدفة الأستاذ التاري وصاحب الوسك منه أحمد عبد الماجد.. أما قائد القافلة فكان الصاروخ الأدبي المرحوم الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود جامع كتاب وحي الصحراء ـ المجهول من أكثر الشبان الأدباء ـ يسير وراءه كالديدبان الطبحي القديم الشيخ أحمد خليفة وكان تعارفي وصديقي المرحوم العتيبي بهذا الرهط في مكة وطلعنا منها مدعوين منهم إلى الجعرانه في أواخر رمضان من الرمضانات القديمة التي كان يؤتى بالعمرة فيها من الجوانة بعد أكلة مبشور.. أو من التنعيم بعد براد شاي!

كما أن قصيدة ـ يا نهر ـ لميخائيل نعيمه ـ فيما قبل تاريخي الأدبي الشعري.. كانت موضوع محاكاة من الرعيل الأول بمكة وبجدة من

الشعراء قبلنا.. أمد الله في أعمار البقية الباقية منهم.. وإن غطّت على سحناتهم المهجرية حقاً معارضاتهم بقصيدة.. يا ليل الصب متى غده!

تلك بعض الملامح من قصة أدبنا.. قام جسرها المتين على أنقاض الكوبري القديم مده الشيوخ القدامى المجهولون في كل من مكة وجدة والمدينة أيام كانت الصدارة والرواية للتخميس.. والتشطير.. والتشجير.. ومحاكاة شعر الأوائل في قالب عتيق جامد.. مثل:

ومكارياً أبصرت في وجناته ورداً يلوح وجلناراً يقطف
أخذ الكرا.. مني.. وأحرمني الكرا بيني وبينك.. يا مكاري الموقف!

❊ ❊ ❊

وقد قيلت في شاب حمار ـ بتشديد الميم ـ وسيم المحيّا.. فيما تدل عليه الاهتمامات الشعرية حينذاك بالقوامات الخيزرانية.. وبالبقش الكشميري..

(٢٢)

من قِمة كرا . . إلى شعاب مكة

ويضاف كذلك عطفاً على ما فات . . عن مصادر المعرفة بجدة . . المكتبات المباركة بجوارها بباب السلام . . للمسجد الحرام بمكة المكرّمة تلوّنت حياة أم القرى بما حفلت به من الموارد إليها بطريق جدة . . دهليز الحرمين . . وفي طليعة هؤلاء معالي الشيخ محمد سرور الصبان، والغزاوي، والعامودي، والآشي، والمقادمي وعمر عرب، وسواهم، طلائع مبشرة ببزوغ كاتبنا الرشيق الأستاذ محمد حسن فقي - في ماضيه النثري ـ وشاعرنا البارز اليوم . . في حاضره الشعري اللامع . .

وقد خصصت الأخ السيد محمد حسن فقي بما خصصت لمناسبة جدت في مستقبل أيامي فاستشهدت به في طليعة من استشهدت بهم . . وموجز المناسبة أننا كنا ذات ليلة جماعة يتكي بعضنا على مرفقه . . والبعض الآخر يدلدل قدميه في استرخاء . . بعد قيامنا عن مائدة الداعي لنا . . وجرى الحديث سهلاً غير ممتنع . . حتى تثاءبت الكلمات ناعسة ممطوطة . . تتدحرج بليدة من حنجرة أحدهم وكان كاتباً مرتزقاً ثعباني المداخل والمخارج فقال . . إنني أحسن من كتب ويكتب!

فانتصبت التكوة . . ودبدبت الأقدام . . وكنت أول المجيبين قائلاً

له.. وأين نضع إذاً الكاتب الرشيق الفقي ذا الأسلوب المنمنم الحلو.. والعبارات الناطقة.. والمعاني العميقة.. والسطور الموزونة بميزان الذهب؟ بل أين يقف في الصف حمزة بحنفشعياته.. وبمحاضراته وبرسائله.. وكلها من عيون البيان السحري النادر الممتاز؟؟. أو الأستاذ العواد بأعاليه.. وأعماقه وصواعقه؟.. وفلان.. وفلان!..

وتابعتني الجماعة مؤيدة.. وموضحة أكثر مني في إسهاب وتفصيل.. فابتلع أخونا صاحب أفعل التفضيل ما بقي له من ريق.. وانسحب من الدعوة مستأذناً.. وقد أودع لدى مجلسنا سيرته العنترية نهباً مشاعاً.. حيث سلقناها بألسنة حداد.. وطوال!..

ولعل هذه الذكرى العابرة تستدر من الأستاذ الفقي فيضه النثري القديم بجانب فيوضه الشعرية الحالية فيعيدها جعبة.. منثورة في أي الصحف اختار.. فقد أصبحنا نعتقد هذا اللون في وقتنا بصمت الصديق محمد عمر توفيق وبأصلاد السرحان. وحجراته.. وبتناثر أجزاء العريف بين خمسة لا تطول.. ويومية تستغني بصدر النهار عن بقية اليوم.. وبتمتمات (الجفري) الشابة وبلمعان لم يتصل بريقه.. ليكتمل.. من بعض أدباء الشباب وكتابهم الآن. وبضياع الفتنة الغنية الخالصة بين أكوام.. وأكوام.. من أدب الجراويل.

ولعلَّ أقدم شاهد على ما قلناه ونقوله في هذه الأبواب الأديب الأستاذ عبد السلام الطيب الطاهر الساسي.. المدني مولداً.. الجداوي نشأة.. الطائفي مصيفاً.. المكي إقامة في كل مقعد..

وتترقرق الذكريات بخاطر الفتى ـ وبنفسه ـ تتمايل رقابها نحو الوراء.. تارة.. وإلى الأمام تارات.. كأنما تضع له بتلك الأبجديات

المقدّمة لأسفار مقبلة منها يزاحم بعضها البعض في تراخ له معنى التوفيق.. وفي توافق فيه حالة الانسجام.. وإن فاتها في ميلانها ضبط الحركات الموزونة يحفل بها الراقص.. ولا تعني الحالم.. الهائم.

وتلك هي معذرتي إن أنا أطلت ـ غصباً عني ـ أو إن سبق إلى لساني ـ أو قلمي على الأصح.. هذا الحديث الأدبي البسيط المتناثر والمفكك باعترافي الصريح.. كما أنني أكررها لاستماحة العذر إن جاءت الإطالة فيه قاصرة علَى دهليز الحرمين ـ جدة ـ لتأخذ المساحة الأكبر منه.. فالفتى ـ الذي هو أنا ـ معذور في ذلك إذ إنه أحد أبنائها المحصورين بين سورها القديم الزائل.. وعلى شاطئ بحرها الطويل الأسياف.. والرقيق الأمواج.. تلاعبه وتلاغيه حتى اليوم.. ثم أن المسافة من جدة إلى مكة كانت في قياس الرحلات طويلة آنذاك.. ومضنية.. وإن صرخة أستاذنا بمدرسة الفلاح بجدة الأديب الشاعر الأستاذ محمد حسن عواد.. ولثلة الفلاحين المتطلعين المتحمسين لها أمثال حمزة شحاته.. محمد علي باحيدره.. محمود عارف.. سالم أشرم.. عباس حلواني.. عبد العزيز جميل.. وشنب.. ثم الرعيل الثاني أمثال الأستاذ محمد علي مغربي.. أحمد عباس ومحمد سعيد عتيبي والشبكشي والعبد لله وسواهم من الصف الثاني..

كما أن المدينة المنورة كانت يومها بالنسبة للفتى مجهلاً بعيد الأمداء حتى ظهر المدنيان أحمد وأمين.. والحافظان.. علي وعثمان.. والعميد الباحث الكبير الأنصاري عبد القدوس والعالم الشاعر القاضي الأستاذ ضياء الدين رجب.. ومن أخذ يصبحنا ويماسينا في إصرار ومداومة أخونا أبو الزيادين.. أطال الله بقاءه..

ولن ننسى.. كفكرة رئيسية وأصل ما كان لفضل الناديين الأدبيين بدار عبد العزيز جميل.. حيث كانت تلقي المحاضرات.. والأبحاث فرعاً من الأصل المنبثق عنه وهو النادي النصيفي لصاحبه المرحوم حسين نصيف مؤلّف ماضي الحجاز وحاضره فيما بعده.. والذي قاد يومذاك حملة كبيرة كادت تكلل بالنجاح.. وتتلخّص في ضرورة قيام لجنة مكوّنة على قلتهم حينذاك لدراسة الأماكن التاريخية والأثرية في كافة أنحاء المملكة رغم الصعوبات المادية.. وعدم وجود المواصلات.. وسلسلة العقبات والحواجز.. ولعلَّ الأوان قد آن لتنفيذ هذه الفكرة الجليلة بعد أن توفّرت الإمكانيات في عصرنا الساطع الحاضر حيث لا يزال بعض تلك الأماكن والآثار في عداد المجاهيل حتى الآن.

أما النادي الثاني.. فكان غريباً في بابه فعلاً.. فقد اتفقت جماعة من الأساتذة الشبان بمدرسة الفلاح.. فاستأجروا وأثثوا مقعداً ـ كما كان يسمّى ـ ليكون مقراً ليلياً لهم بعد انتهاء دوام المدرسة.. واتفقوا فيما بينهم على أن يقوم كل منهم بإلقاء درس في المادة المبرز بها.. فالأستاذ يوسف العوضي للإنجليزية نطقاً فقط.. وعارف للصرف.. والأشرم للتجويد.. وعمر عبد ربه للحساب.. وباجسير للفقه.. وقنديل للنحو.. والولي للشاي والمنصوري لعمل المعدوس ـ أو السليق ـ ولقد كانت ميزة هذا النادي المشائخي أنه أصبح فيما بعد ملتقى احتكاك مولد لشرارات فكرية كبيرة لكل من العواد وشحاته.. وراسم ويونس سلامه.. وأنيس.. وأبو الحمائل.. وسواهم كزملاء زائرين أخذاً وعطاء في ميادين البحث والفكر.. وتكراراً لما سبق بشأن الرحلة الأدبية العلمية التاريخية.. فإن الأوان قد آن كذلك لتكوين النوادي الأدبية بمدن المملكة كلها تحتك بها

الأذهان والقرائح احتكاك السحب يسح منها الغيث العميم.

والآن.. فإنني أقرر خجلاً.. آسفاً.. أن المشوار قد طال جداً بين ما كنا عليه في رأس الجبل الذي صار سهلاً حيث وقف الجدابي يرينا الندى فوق مدينة جدة ـ أم البحر ـ وما خضنا فيه من حديث أدبي دفعنا واجب "الكار".. إلى الثرثرة غير القصيرة.. فيه إلى هنا.

وعلى ذلك.. وعلى طريقة ما بعد الطلوع إلاّ النزول.. فقد انحدر ركبنا في الأخير هابطاً الجبل.. كرا في طريق منه إلى السفح.. الكر.. فشداد.. فعرفات.. فمنى . فمكة المكرّمة يعمرها الله.. حيث أن لها حديثاً هي الأخرى لا بد من ذكره حيث كان وما زال عالقاً بنفسي وبفكر الشاب يرافق أباه.. في رحلة العمر.. الطري.. اللاقط.. الحساس!

فإنه لا يزال يذكر إقامته.. بعد الحج.. بمكة مع والده نزيلين بمحلة الشبيكة بدار الجلاب أبي شنب موكل ابن عمه بجدة.. وهنا لا بدّ من وقفة تفسيرية قبل الاسترسال مع الذكرى.. فقد كانت العادة لكل تويجر بمكة.. جلاب.. كما كان يسمّى.. أن يكون له وكيل في جدة يتولّى باسمه مراجعة شركات البواخر.. وترسيم البضاعة نقداً أو صنفاً.. والصنف أن تدفع الجمرك المستحق من نوع البضاعة بدلاً من النقد.. لإخراجها من الجمرك.. ثم مراجعة شيخ الجمَّالة ـ بقهوة الجمالة ـ بمقرها القديم الذي أصبح اليوم جزءاً من سوق عصري حديث.. وذلك لتحميلها بواسطة المخرج المخصص له رأساً لمكة.. أو لتخزينها بأحد الأحواش لتصريفها حيث هي أو بعثها فيما بعد.. وبعد أن يأخذ المخرج من الوكيل ـ الشتى ـ لسماح بواب الحوش بخروجها ومن هنا ـ فيما أرجح ـ جاء المثل الشعبي القائل: ضعنا بني المخرج ـ وراعي الباب!

ولقد كانت التجارة الرئيسية يومها ـ كما لا أحتاج أن أقول ـ في جدة وأظنها لا تزال كذلك لليوم. كما كانت لها حيثياتها ـ وتقاليدها.. وآدابها.. وأمانتها.. يحترم كل قواعدها كل من التاجر الكبير من أصحاب البيوت التجارية والتويجر الناشئ والوكيل للجلابة ودلال الكف.. وبائع الجملة في مغلقه.. والطاعي بحانوته.

(٢٣)
المكرّر يحلو

ولكلمة التاجر.. في منطوقها، ومفعولها العربيين قيمة أكبر شرفاً وارتباطاً بها من كلمة.. "ويرد" الإنجليزية.. فقد يرتبط بكلمته ببيع صنف لا يلبث بعدها أن يرتفع ثمنه إلى رقم مغري.. فلا يرجع فيها بالرغم من عدم دفع المشتري عربوناً.. أو ثمناً.. أو اتخاذ أية إجراءات ملزمة.. كما لم يكن هناك بند باستلام النقود تنوب الثقة والأمانة عنه أو عن الشهادة والشهود وهكذا إلى آخر المميزات البارزة لبلد كان كل سكانه وكأنما يكوِّنون عائلة أو جسداً واحداً إن تألم تألمت له بقية الأعضاء فعلاً.. (تلك نطة قصيرة.. لم يكن بد من أن تسبق ذكرياتي عن أم القرى وأولها أن أول ما لفت نظري وهالني فيها قامات وقوام الرجال المكيين الأشداء طولاً وعرضاً ومتانة بنيان تذكرنا.. أو تعطينا صورة حية.. للعمالقة ثم البشاك لكل بشكة منها مركزها اليومي بمقهاها المفضّل.. وثانيها حلقات ـ الجوك ـ ولعلَّ الكلمة الفصحى ـ الجوقة ـ كأصل لها.. تسمع فيها.. يا غصن نقا.. ويا صفا الأزمان.. وما إليهما في أصوات قوية منغمة رائقة.. تزيد في روعتها ضربات الأكف صفقة مرتبة في خلالها ولدى كل مقطع.. ونهاية!

وأخيراً.. لا آخراً.. تلك الملامح لأهالي كل محلة بذاتها.. وروح المرح الشائع وفنية الحياة الضاحكة.. في سلاسل إنسانية تشكل في مجموعها مجتمعاً بشرياً يتجلّى فيها ظرف الحجاز تومئ إليه سطور وسطور من التاريخ القديم لأجدادهم الأوائل في واديهم المبارك.. وشعابهم الصلداء.

وبعد.. وبعد أن طوينا المسافة من قمة كرا.. إلى شعاب مكة، فسهل جدة الفسيح.. وفرح بعودتنا الأهل والجيران وصلت إليهم في تباسيها وبقشها الهدايا مشعرة بقدومنا الميمون.. واستمتعوا بما حفلت به من القلادة.. والحمصية، واللدو لذوي العلاقة الضعيفة ـ إلى النغاري في أقفاصها منادية ـ خديجة ـ خديجة.. غدا.. خد.. لأصحاب العلاقة الوثيقة، فقد حق للعائد أن يتيه على زملائه وأترابه راوياً مكرراً ومعيداً.. ما شاهد.. وصادف.. وما قامر لأجله وما غامر به في رحلته إلى قمة الجبل.. وما وراءها.. ولم يكن ذلك الذي فعل باليسير في عصره البطيء.. ومع ذلك فقد جرأته تلك الرحلة الأولى إلى كرا.. أن قبل بصدر رحب وشهامة بالغة قيادة ركب جديد إليه في العام التالي مباشرة.. ركب مؤلف من سيدة كبيرة وقورة كانت تشغل في جدة مركز أكبر قابلة.. داية.. فيها، وكان يصحبها ولدها وزوجته..

وللألفة وللصلة الوثيقة التي ارتبطت بها مع الجدابيين نفسيهما فقد كانت حمرها غير الوحشية هي مطايا ركبنا الجديد.. وهكذا تكررت مقابلتي مع الجبل للمرة الثانية صاعداً على قدمي فيه.. فأصبحت بيننا والحالة هذه ـ مكررة تحلو ـ معرفة، وألفة وصداقة، وحب بدأت كلها في يوم ما.. من شهر ذي الحجة المبارك، في عام ما، من الأعوام

الهجرية المجهولة النسب في عالم الأرقام.

ولا أجد داعياً أو مبرراً الآن لأية قفزة جديدة، أو نطة إنجليزية أو عربية، لأسرد مكرراً ما أسلفت بالطريق للجبل أو فيه، أو على قمّته، أو بوديانه، وبوادي الأعمق الجميل، حيث ظلّ القلب وهواه، معلقاً حائماً حول مربعة أنيقة رشيقة تسكنها مزنة ذات القصة الغرامية يضمها في صفحات شعرية غلاف وردي حبيب.

وتمرّ الأيام.. تطوى الشهور.. تدور بها الأعوام.. في نتائج وأرقام.. فإذا أنا في الهدا.. في أوائل عام ١٣٨٤ هجرية مدعواً للغداء، فالإقامة إن شئت لدى الصديق القديم الأستاذ محمد عمر توفيق، في مرابيعه الصفراء، بلون الكركم، وسط بستان أخضر، ولن تكون البساتين إلا خضراء.. ولكنه تقليد الوصف الملزم الملتزم به..

وبعد أن قشرنا آذان بعضهم في قهوة صن رائقة، قرأنا ما تيسّر من قصيدة حلمنتشية طويلة بعنوان ـ رحلة الصيف ـ نشرب بالمركاز دائم الذكر.. مبدئين ومعيدين ما جاء بتاليها خاصاً بـ:

بمرابع "التوفيق".. في بستانه	في البيت.. مرشوشاً بلون الكركم
فلربما صعد المحب إلى الهدا	وحبيبه في جنبه.. كالأبكم
سرحان.. فكر في الطريق مسفلتا	ومعبد الأطراف.. غير مكمكم
متذكراً عهد البهائم.. صاعداً	نحو الشفا في حيرة المحرنجم
أو هابطاً نحو السلامة من كرا	أو ساقطاً تحت البرادع يرتمي!

* * *

وأؤكد أنه لم ترد كلمة (البرادع) عفواً في العجز الأخير، فقد أسهبنا

يومها في سيرة البرادع ـ أيام زمان ـ مقترنة بسيرة الحمير البلدية الفارهة والمنقرضة في تاريخنا الحديث تقريباً.. فلقد كان لكل حمار بردعته الغالية يتفنن صاحبها وصاحبه في جعلها مخملية مرتفعة الصدر مسبلة العجز.. تتفق وما كان يناله الحمار المدلل ذاته من قص شعره لدى الحلاقين ـ قصاصي الحمير كما كانوا يسمون ـ على أحدث طراز.. كوفيري.. قديم.. كما كانت الحناء الوسيلة الوحيدة للتوليت ولزينة ينهق لها نهيقاً رقيقاً تيهاً بهما على زملائه.. حتى استطردنا إلى الحسرة على ما كان ينفق على الشعر لشوشة الحمار.. وعلى البردعة لظهره من دخل قومي تلاشى هباء.. في تلك الأحقاب الجاهلية..

وانحدرنا إلى ما تلاه من وسائط النقل.. لا تحتاج اليوم إلى تلك الزينة يشارك بها البهيم الإنسان.

ومن استطرادة لأخرى.. جاء ذكر حبيبي وصديقي وزميلي.. كرا ـ الجبل الذي صار سهلاً.. وحيث أني لم أنسه قط.. فقد انحدرت تلقائياً بعض العبرات تكفيراً عن خطيئة التقصير في حقّه.. وكان منى على بضع خطوات.. أو أمتار.

(٢٤)
تحت المكياج

وكما يسوق البدوي حنينه إلى الأطلال.. والدمن الخوالي.. وكما تنبعث في النفس المحبة ذكرى حبيبها الأول.. في هواها البكر.. في قرصات لذيذة تدغدغ مكامن الشعور وفي همسات خافتة تنادي مسامع الوجدان.. فقد حننت إلى الجبل.. كرا.. حبيبي القديم.. وقد لاحظ الصديق المضيف روعة لحظات الهيام تكشفها ملامحي الحزينة.. وعبراتي الصادقة.. فأخذ يسرد على ما يجري ذلك اليوم من عمل ضخم جبار.. لجعل الجبل سهلاً.. وطريقاً عصرياً من أحدث الطرق وأجملها.. وإن بإمكاني إرواء وتجديداً لعهد بائد قيامك بإطلالة خاطفة عليه لترى ما نصنع به حتى يعود أقوم.. وارشق.. وأحلى مما كان.

ولقد هممت بدافع التحريض ـ وبإلحاح من شوقي الزائد للجبل.. بالذهاب إليه.. بل وبالنزول منه بسيارة خاصة.. وبإذن خاص.. ولكن الذي حدث كان غريباً في بابه.. فقد أنكرت نفسي مجاراة لبداوة حبها وحنينه واحتفاظاً منها بالصورة القديمة الحلوة لحبيبها أن أراه تحت أقدام الدركترات.. والهراسات والمعاول.. وقد كشف لها صدره عارياً.. بعد أن أحنى قامته.. وفتح لها قلبه.. وأباحها جسده وثناياه تفعل به ما تشاء..

بل لقد اقشعرّت نفسي وخشيت أن أراه كذلك.. تماماً تماماً.. كما يقشعر ويخشى المحب أو القريب لا يجرؤ أن يرى حبيبه أو قريبه طريح المستشفى.. وفوق كرسي العمليات تجرى له أخطر عملية جراحية.. حتى لو كانت تلك العملية ـ كما كانت لكرا ـ عملية تجميل.. ليصبح بعدها جبلاً جذاباً ممشوق القد ناحل الخصر.. لا فضول فيه قد زالت من وجهه تجاعيدها.. ومن أطرافه.. كشاويه وزوائده.. وفارق أعضاءه تصلبها.. وسلسلة ظهره يبوسة فقراتها المتصلة الحلقات..

ولعلنا من تلك البادرة من نفسي ومني تأخذ فكرة عملية على أن هناك صنفاً من المحبين لا يودون أن يروا حبيبهم إلاّ في الصورة التي ألفوا أن يروه عليها باعتباره الصورة الأولى التي رأوه بها.. فأحبوه كذلك..

بل وأذكر مصداقاً لما ذكرت أن جاراً قريباً لنا فيما بعد كان لا يحب أن يرى حليلته إلاّ في كرتَتِها الساتان غير المشجّر.. بوجهها الأسمر الجميل طبيعياً دون ألوان.. وبشعرها المتناثرة بعض شعراته على أطراف جبينها.. وبرؤوس أصداغها.. وعلى جانبي كتفيها.. وحتى ما فوق ركبتيها من الخلف.. في إهمال لذيذ..

ولقد سمعنا ذات مرّة لم تتكرر.. صراخاً وعراكاً وهياجاً دب كل ذلك بينهما بسرعة انتشار لهب الحريق، وبذهاب بعض عقلاء العائلة وقد انحشرت خلف إحداهن بدافع الفضول ـ تبيّن أن السبب في ما أصاب الرجل المحب الوامق هو أن حليلته بإغراء من جارتها الجديدة المودرن قد قابلت رجلها بلون محدث وبسمت جديد.. فقد تلون وجهها بالأحمر.. وبالأبيض.. وبالأخضر دون مراعاة لسمارها الطبيعي الحلو

واختفى قوامها الرشيق داخل فستان بدعة من بدع الموضة.. أما شعرها الليلي الطويل الجميل المنسدل حتى ما دون ظهرها فقد زال معظمه ليبقى مكوفراً في ثلاث دوائر كالكعكات فوق رأسها.. وكان ما كان بينها وبين رجلها الذي فقد الصورة المحبوبة فيها ففقد عقله.. شأني تقريباً في تلك اللحظات الرهيبة التي أرادوني فيها أن أرى حبيبي ـ كرا ـ تحت المكياج!

ولا أطيل.. فقد مضت مدة.. وأنا نهب عواطفي وأحاسيسي الملتهبة المضطربة تجاه كرا الذي لا يبعد عني أكثر من أمتار معدودات ومع شعوري بصدق العزاء الجميل يقدمه لي الصديق محمد عمر توفيق في صورة استعراض للخطوات التي تمّت في إصلاح الطرق الفرعية بمدينة الطائف وضواحيها ومنه إلى الهدى نفسه.. بالإضافة إلى الطريق المعجزة مشيراً إلى الجبل دون أن يذكر اسمه صراحة.. حرصاً منه على موضع الرقة من قلبي لذكراه.. وعدم إيقاد نار الشوق إليه.. ونثر الذكريات العزيزة بسردها في مجلس غير مهيأ له فقد شغلت أصحابه أكة اللال وصر الشيريا عن كل ما عدا ذلك خشية كل رفيقين متقابلين من أن يكون شرب "القهوة" ممزوجة بتقريق الحاضرين.. نصيبها.

وحتى أسلو كرا ولو مؤقتاً.. فقد تجاسرت أخيراً وبعد التغلب على حنيني القديم والمشتعل المتصل بهذا الجبل فأخذت أسرد للصديق ما رأيته جديداً عليّ في كل من مكة ـ وجدة ـ والطائف.. بعد غياب عن المملكة متصل ومنقطع جاوز آنذاك ستة أعوام..

فقد رأيت مثلاً.. في جدة.. جدات حديثة.. تزهو منطقة الشرفية منها بفيلاتها الأنيقة الرشيقة في شوارعها الممتدة الطويلة.. ويتيه الرويسان الأعلى والأدنى بتلك الدور والفيلات الجدية وهكذا بقية المناطق خارج

مواقع السور القديم.. بما في ذلك المساحات الطويلة العريضة وراء كل منها حتى لقد أصبحت لا أجسر على التغلغل بعيداً عن دار الضيافة التي أسكنها لدى العائلة حتى لا أتوه فيها أو أضيع نهائياً بينها لينادي علي يا من شاف الرجال ـ بدل الولد ـ الضائع..

أما الحال في جدة نفسها جدتي القديمة والتي أعرف كل شبر مألوف فيها فقد هالني.. وإن أثلج صدري ونفسي.. ما آل إليه ـ عمارات ضخمة ـ وشوارع عريضة.. ومعارض ـ وحوانيت.. وأسواق على أحدث طراز تزخر بأحدث الموديلات من مائة صنف وصنف.

ويوم قدر لي أن أصعد إلى أبحر عصر جمعة ما.. ورأيت الأفواج من الناس والأرتال من السيارات على طول الشواطئ هناك تذكّرت دون حسرة على طفولتي وإلى غير رجعة لصباي.. الأيام الخوالي الخرافية التي كانت تذهب الجماعات فيها.. إلى بحر الحجر المواجه لفندق البحر الأحمر للاغتسال فيه كعلاج من الحمى في دورها الأول الذي كنا نطلق عليه "الدخدخة".. كما لاح بخاطري أيضاً منظر البشر كانوا يقصدون بحر (أبو العيون) لمعالجة ما بعيونهم من رمد أو عمش أو طشاش.. وهو البحر الذي قامت بسرعة على شطه الأبنية والورش، ويمتد على قسم كبير منه المعرض العائد للصديق محمد علي مغربي، والذي كانت تقوم قديماً بجوار شطوطه رواب صغيرة من ملح الطعام. واسترسلت أمام صديقي المستمع في جلاء مرئياته السارة والعديدة بجدة أطوي معظمها.. لأصل منها إلى مكّة المكرّمة ـ. وقد أذهلتني كثيراً أثوابها القشيبة في كل شارع.. ومنحنى.. وزقاق.. وجبل.. حتى لقد أحسست فعلاً أني أسير في مدينة جديدة عليّ غريبة عني. لاهجاً بالحمد المتواصل مثنياً من كل

قلبي وجوارحي على العاملين جميعاً لجعل المدينة المقدّسة مثلاً ممتازاً يجب أن يحتذى.. مستغرباً الغرابة كلها أن يتم في مثل ذلك الوقت القصير هذا العمل الجبار الضخم.

(٢٥)

بوابات.. ونوافذ..!

وأشهد لوجه الحق.. خالصاً.. أنني مع إعجابي الشديد.. وإكباري المتناهي لما رأيت عليه أم القرى ـ يعمرها الله ـ في أرديتها القشيبة العصرية فإنه لم تغمرني الجوانب المادية وحدها فتذهب بما في نفسي من حنين روحي جارف لمكة.. وقد جرى بطبيعته ـ كطبيعتي حين أتأثر شعراً.. أجد من اللازم عليّ هنا إثبات بعضه للتدليل على ما نوّهت، رغم ما قد يصيبني من رشاش القول الطائش بأنني إنما أثبته هنا رغبة التطاول أو التباهي أو التبجُّح بما لا مجال له في هذا المجال.. فقد قلت في قصيدة بعنوان.. في مكة.. مكة التي بعدت عنها متصلاً حوالي ستة أعوام..

حيى أم القرى أتينا إليها — خشعا.. خشعا.. نمد القلوبا
ظامئات إلى الجلال.. عليا — خافقات ـ مع الجمال ـ طروبا
حائمات.. كالطير للمنهل العذ — ب ترامت صوبا.. ورامت وثوبا
ترتجيه لدى المناهل رياً — تستقيه . فضل الدلاء . صبيبا
بعد نأي أذوى النفوس حنيناً — بعد لأي أذكى الحنين.. لهيبا

رب إيمـاءة أرق من الـفـجـر نسيماً.. ومن هواى.. دبيبا
جمعت بيننا الصباح.. محباً قد تناهي غرامه.. وجيبا
في لقاء.. قد جمع الأمس.. والـ ـيوم.. ضروبا من عمرنا، وضريبا
وأنا العاشق القديم.. جديداً شفه الوجد.. غربة.. وغريبا
في هواك المكنون.. ما مسّه البعد انتقاصاً.. ما نال منه نضوبا
إنما أنت مكة في مسـمـ ـاك.. بعيداً عن عيننا، وقريبا
أنت منا حياتنا صغت منها حبنا البكر.. صيغ فيك ربيبا
قد ألفنا منك القديم.. تليداً وعشقنا منك الجديد.. قشيبا!

إلى آخر تلك القصيدة صغت بها المشحون بروحي حباً وصبابة وشوقاً في شعور صادق برؤيتي إياها. كما صارت ـ وبأحساسي الدائم بها.. كما كانت؛ مهوى شباب.. ومسارب حياة حارة دافقة بين واديها ـ ومحلاتها ـ وفوق أجبالها المباركة رقرقت التاريخ في أصلادها.. ثم أباحته للدنيا نور هدى.. وهداية وإيمان.

وفي قصيدتي الحديثة (مكتي قبلتي) سيل تعبيري دافق عن ذلك من كل ذلك.

هذا.. ولقد أطمعتني سماحة الصديق محمد عمر.. ورحابة صدره بحكم زمالته لي في ذلك العهد.. فاغتنمت إصاخة سمعه جيداً لما أقول .. بعيداً عن مشاغله في شؤونها وشجونها.. وعن سرحانه المعهود وعلامات استفهامه الشبيهة برمي البنادق.. فسلسلت في ترسل.. وتدفق من ذكرياتي.. ذكرياته البعيدة.. ما كنت أرمي من ورائه إلى إبعاد شبح الحبيب.. كرا.. القديم.. القريب.. عن خاطري المتصل به.. لا

تنفصم عنه مرائيه لتآلفه فيه.. وبحكم المجاملة.. وخشية من الرمي من جديد بتهمة ثقل الظل فإنني سوف أطوي كذلك ما نثرته عن ذكرياتنا في مراتع الطائف ومراعيه.. لأسجل غير ناسٍ بحثاً فكرياً شائقاً عرض أثناء الذكريات ووقف بنا النقاش بسببه حاجزاً دون تدفقها.. فقد جاء عرضاً ذكر الرشوة بمفهومها التقليدي الأصيل.. وبمفهومها.. العصري الطارئ.. وكان لي رأي معارض متصلّب حيناً كل المعارضة وكل الصلابة.. متخاذل أحياناً.. بعض التخاذل.. دون لزوم.. فذكرت ما قرّ في حافظتي مما قاله يوماً أحدهم.. في أسلوب سقراطي لئيم العرض.. ترى ما هو مقياس الفضيلة والرذيلة.. لدى المجتمع في واقعه العملي المتداول؟؟

على أساس من مقياسهما قديماً.. بحكم رئيسي.. هو حكم الإجماع؟.. لنفرض أن رذيلة ما من الرذائل القديمة أصبحت تمارس من مجموع من الناس تصل نسبتهم إلى خمسة وتسعين في المائة.. بحيث لا يعف عن إتيانها إلاّ الخمسة الباقية من المائة.. فما هو الحكم عليها اعتباراً لها من الرذائل.. أو الفضائل؟ وأحمد الله على السلامة من الزلل.. فقد اتفق رأيانا في الأخير أنا والصديق محمد عمر على أن الرذيلة رذيلة.. والفضيلة فضيلة بمؤدّى كل منهما في مجاله وبفعاليته فيه.. أداء للخير ـ أو تردياً في الشر ـ والخير والشر مفهومان محددان معلومان.. فلن تنقلب الرذيلة إلى فضيلة.. بمجرّد ممارسة الكثرة الغالبة أو المطلقة لها.. إطلاقاً..

وعلى ذلك. وبموجب القاعدة الراسخة السالفة فالرشوة رذيلة. رذيلة.. لا تزال.. ولن تزال كذلك مهما رمى معارضوها بالغفلة تارة.. أو بالحنبلة.. أو العجز عن ممارستها تارات أخرى.. ومهما قيل في

تبرير سطوتها العالمية تقريباً، بنسبة ارتفاع النسبة العالية من ممارسيها.. أو انخفاضها.

كما جرنا البحث.. وللبحث كما للحديث شؤونه وشجونه.. إلى مناقشة موضوع السفور.. وكان ذلك بسبب مثال ماثل وحي.. حين مرّت أمام مجلسنا المكشوف تحت مجموعة من الأشجار العالية نفترش من بساط أرضها السندسي ـ مجلسنا.. فتاة من فتيات ثقيف ومن سكان الهدا.. وقد أقرأتنا السلام في فصاحة وشجاعة.. وببساطة تشبه بساطة جداتها العربيات المسلمات السافرات.. رانية إلينا بعينيها الدعجاوين تطلان في براءة من تحت شرفات جبينها الساطع دون أن تشعر بأن في إفشائها السلام على أبناء جنسها الذكور أية غضاضة أو أي خجل.. فطرة درجت عليها مثلما درج عليها الصبايا في أريافنا وبوادينا.. سافرات السفور المعتاد لا ينحدر به التقليد.. أو يجافيه العرف.

ولقد امتدّ نفس البحث مستعرضاً الأصل.. وهو السفور.. ورأى العادة.. والمتبع.. والاصطلاح فيه.. ممارسة طبيعية له.. ثم الفرع ـ وهو الحجاب ـ وأمر الشرع فيه بمسبباته وبدواعيه.. وما زلنا نصعد ونهبط مع تواتر النفس الطويل في البحث حتى قادنا إلى نقطة سوداء.. تتصل بموضوعه اتصالاً وثيقاً في تاريخ المتمدينين لم يرضهم السفور في كل درجاته حتى انتهوا فيه إلى أن جعلوا العري التام موديلاً جديداً له.. فأصبحت للعراة نواديهم.. وكان في وصولنا إلى هذه النقطة السوداء المخزية بالذات الدليل المادي الذي جعلنا نختم بالشمع الأحمر باب النظرية السفسطائية يختال بها أصحابهم في قولهم.. ترى ما هو الفرق في الجسد الآدمي بين الإصبع المكشوف وهو جزء منه.. وبين أي عضو

مستور منه؟.. ومع التسليم بقيام السفور الريفي نشأة.. وتربية.. وعادة.. وحصره في المدن وحدها.. فقد طغت على ما عداها مزايا الحجاب.. بالنسبة للنكسة البشرية تغالت باسم السفور في إذلال الأجساد الإنسانية تتباهى ببذل اللحم الآدمي.. معروضاً على الأنظار الشرهة بالتمادي في كشف المساحات المصونات منه عاماً بعد عام بما سوف يفضي إلى العري التام..

(٢٦)

المركاز.. بين زقزوق.. وظريفه..!

وما نتج عن طبيعة الكشف المطلق.. لا يؤثر خيالاً.. ولا يحرّك فضولاً.. ولا يترك للتصور مجاله المفروض حتى ذات الأعراض غثياناً.. عن رؤيته كذلك.. وشاع الاسترخاء.. عن متابعته.. دون ستر.

وأشهد أننا مع ما ألمعنا إليه عن الرشوة.. وعن السفور.. بما درأ الفتنة لدينا على الأقل من سلطانهما.. فإنا أشرنا.. للقاء آخر.. بقاء هاتين البدايتين من أبواب القضايا الاجتماعية الإنسانية الحاضرة.. مواربتين للعودة إليهما.. استدامة للتمارين الفكرية تشغل ذهن الباحث عن الحقيقة لذاتها.. لتجدد بها خلايا الدماغ.. وإبقاء للنوافذ الذهنية مضاءة في ميدانه الفسيح نكشف من خلالها ونكتشف مواقع ومواضع زوايا الظلام.. بما في ذلك المقارنة بين التعطيل التام أو الاستفادة الكاملة من نصف كياننا البشري تمشياً مع قول من قال:

يصعد الشعب بجنسيه أناث.. وذكور وهل الطائر.. إلا بجناحيه يطير

كما أشهد أن يومنا في مجلسنا بالهدا.. كان يوماً حافلاً بكل ما فيه ـ بذكرياته ـ بأبحاثه ـ بما قلناه، أنا والصديق محمد عمر.. قديماً..

وجديداً.. ومفيداً له.. سلوانا عن مشاغله الرسمية لساعات.. ولي أنا بالأخص.. تلهيه عن متاعبي لحالة الجبل تدوسه الهراسات.. ويفعل فيه الديناميت المتفجر أفعاله على مقربة منا.. وبمسمع من أذني الصاغيتين لهدير الآلات الثقيلة.. وصوت التفجيرات القوية.. بقلبه الرقيق.

واستمرّت الجلسة.. وطاب المجلس تزينهما رشرشة الهتان المتقطّع.. وتناثر الغيوم جارية ـ هائمة، حائمة فوق رؤوسنا.. وتتوالى مرفرفة بِجونا الساحر خفقات أجنحة النغارى والقماري والعصافير تتجارى من غصن إلى غصن.. مما دفع بالصديق الوزير أن يندفع في كرمه مع سخاء الطبيعة إلى مد دعوة الغدا.. وقد أجبناها.. مجددة.. إلى دعوة للعشاء سليقاً ممتازاً كان جوار الجبل.. وكانت قمّته أصلح الأمكنة لتناوله.. وقد كان.

وبأسلوب الشيء بالشيء يذكر.. فقد أعادني هذا اليوم الفكري إلى أيامنا القديمة الأولى بمكّة المكرّمة حيث كنت مقيماً بها.. في الخمسينات الهجرية.. صاحباً.. ورفيقاً.. وزميلاً للأخ حمزة شحاته ليعمل نهاره في عمله بشركة التوفير والاقتصاد، وأعمل نهاري بجريدة "صوت الحجاز".. حتى إذا صلّيت العصر.. قمنا راجلين من آخر محلة الشامية وأول محلة الشبيكة بالذهاب إلى نهاية جرول مما يلي ـ البيبان الآن ـ لنتخذ من كراسي الشريط هناك مركازنا المعلوم يتوافد إليه جلساؤنا اليوميون ومعظمهم من الناشئة والشباب مثلنا ويدور البحث.. أو السكناب كما كنا نسميه.. يتناول قضايا الساعة الأدبية مما نشر وما هو تحت النشر.. ومما لا يكتب له النشر.. أحياناً.. أو طول العمر..

وحمزة ـ كما هو معلوم أو ـ مجهول ـ أبو السقراطيات تبدأه بسؤال

يولد أسئلة وأجوبة لا تنتهيان في يوم ـ في سنة ـ في شهر.. ويشترك فيه الكل بين سائل ومجيب عن الفن للفن.. والفن للحياة.. وعن الآراء المطلقة والمرفرفه رفرفة الهواء الطليق ـ وعن الأدباء والكتاب والشعراء.. نقداً مركزاً كما كان يقول العريف وكان يافعاً على أبواب رحلة دراسية حرة بالخارج استشارنا في أمرها فأشرنا عليه بها.. أو منقطاً مفقطاً كما كان يقول أحمد عمر عباس في لهجة مكسّرة بين العربية ـ وبين الإنجليزية التي كان في سبيل إتقانها يخاطب بها الكرسي.. والبراد.. وصبي القهوجي يطلب منه.. "ون قلاس".. "كافيه وزملك" فنجان قهوة بلبن.. أو نقداً عارياً كما كان يريده الساسي عبد السلام وقد تناثر من فيه على وجه أقرب جليس له رذاذ ريقه غير المعسول.. أو استطراداً يمتد إلى كيان "العروبة" العام ومفهومها آنذاك.. وآدابها.. كما كان يريد الخوض فيها بتوسع الأخ محمد على مغربي الذي ظفر.. غير منازع.. بلقب العروبة بين الجماعة.. أو كما كان يشتهي أي جليس ممن كانوا يغشون "المركاز" وهم كثير..

وللعلم ـ فقد انتقل هذا المركاز بعد سنوات ـ إلى "الحقل" كتسمية محمد عمر له.. بآخر المسفلة على طرف ناشف نسبياً من أطراف بركة ماجد، أو ماجن.. أو ماجل.. وانضم إليه مع من سلف بعض من وفدوا من المدينة المنورة لمكة كمحمد عمر.. والبصراويين أنور.. وفريد، وجذبا إليه عزيز ضيا دون ممانعة أو تثاقل.. حتى أصبح بعد حين من الزمن التطور.. لم يشملنا.. فرعه الكبير بيت حمزة بالمسفلة، ثم في آخر الأزمان بدار الزيدان.. بعد انتقاله من طيبة إلى أم القرى حيث أطال المكوث واللبث.. وقبل أن ينزح إلى أخت البحر. وأعود

بالذاكرة دون ترتيب لذكرياتها.. للخمسينات.. ولما هو خاص بي وبحمزة شحاته كشقير برشومي ربطت بينهما الدقائق والساعات والأيام حتى لقد أصبحنا فيها نمثّل دون نكران في رابطة الأدب الزوجية آنذاك.. دور زقزوق وظريفه.. فكنا ما نكاد نقفل محضر مركاز (البيبان) بجرول أو مخارج مكة ـ راجلين ـ حتى نعود كذلك إلى أجياد للسهرة ببيت القزاز يوم أن كان الأستاذ حسن فتى متوفر الإحساس.. حريفاً في الطاولا.. ثم في الكيرم.. يدل على ولعه بهما ثم بالأدب وبالأدباء صوته الجهوري المسموع حتى باب السلام.. حيث لا تخلو السمرة في أية ليلة من بحث أدبي رائق.. أو مجالات فكرية ممتازة..

ولا نكاد نقضي السهرة حتى ننطلق لآخر مرّة ـ راجلين ـ إلى قهوة العم حمزة والتي تقع يومها أمام كوشان الجمال.. واليوم حيث مقر الشركة العربية للسيارات.. بقصد المنام فيها بمركازنا المقرر المحجوز لنا على الدوام.. وكنا نأخذ كل ليلة.. دون تغيير.. المشبوك.. وهو تعبير أدبي ورمزي.. لعشائنا المعتاد المكون من شريكتين ـ حتة جبنة ـ وقرطاس ملح.. على أننا لا ننسى بين أسبوع وأسبوع أن نشتري بعضاً من النعناع لمزجه ببراد الشاي حيث يحفظه القهوجي لنا في حرز مصون.. وهنا ـ كما يقولون بيت القصيد ـ فإننا لا يكاد كل منّا يستلقي على كرسيه الشريط بعد العشاء متهيّئاً للنوم.. حتى يثور سؤال ما.. أو تنبعث فكرة قابلة للمناقشة حتى نودّع النوم.. ويجلس كلٌّ منا القرفصاء في كرسيه بلحاف.. أو دون لحاف.. وقد أخذ المركاز آنذاك ـ كسيرة ومقر ـ طريقه إلى البعض ممن كانوا ـ يطبون علينا فيه ـ أو يشاركوننا بعض الليالي المنام ـ بل السهرة الطويلة على الأصح.. به وفي طليعتهم

الأساتذة المغربي، الساسي، المرحوم عباس صيرفي.. أحمد عمر عباس.. وسواهم..

وتنداح الذكريات حتى تتركّز على الجانب "الغاندي" منها آنذاك.. فالعشاء شريكة وحتة جبنة وملح.. يعقبه براد شاي صرف.. أو ممزوج بقليل من النعناع.. وكثير جداً من أبحاث أدبية.. ومجادلات سقراطية.. أفلاطونية.. سفسطائية.. حتى قريب الفجر.. والمواصلات.. موتو رجل.. في كل مشاويرنا المعتادة.. أربع مرات من محلة الشامية حتى خارج مكة.. دون أن تزعجنا.. أو تقطع بحثنا خلالها أبواق السيارات التي كانت في حكم غير الموجودة لندرتها.. ومن ذلك.. فيما أرجح.. كانت الإشارة في مستقبل الأيام لقولنا:

فمد الخطو مشواراً طويلا فتلك رياضة الأدبا.. يعبدو
بها الرومتزم لم يعرف طريقا إليك ولا التكرّش.. حيث تعدو

(٢٧)

قال الراوي . .
يا سادة يا كرام . . !

ولتسديد حساب هاته الذكريات . . نقلاً عن دفتر الأمانات بها . . فلقد كانت إحدى مشاويرنا ذات أصيل السبب المباشر في تاريخ - الحلمنتيشيات ـ كما ذكرنا في فاتحة الديوان الأول من المركاز وخلاصتها . . تحدي حمزة لي في أن تكون لهجتنا المحلية قابلة لشعر الحلمنتيشيات أو المشهورات على طريقة المرحوم حسين شفيق . . وقبولي لهذا التحدّي . . وعمل حلمنتيشية تنشر بالجريدة وكان موضوعها ـ مشروع القرش ـ الذي كان في حينه مشروع اليوم ـ على طريقة طبق اليوم . . وربما كان لها وله حديث آخر . .

وأقرر ـ دون فشر ـ نجاح المحاولة كما دلّ عليه الارتفاع في توزيع أعداد الجريدة ـ صوت الحجاز وكانت أسبوعية ـ ارتفاعاً ملحوظاً . . وملموساً . . فقد صحب القصيدة من باب التنويع أيضاً باب التعليق الفكاهي على الأحداث الأدبية والاجتماعية الأسبوعية تناولت الأستاذين أحمد السباعي صاحب السلم ـ سلم القراءة ـ وحسن الكتبي ـ حامي حمى

ـ أبعاد الحقيقة.. ثم امتدت إلى سيارة الأستاذ هاشم الزواوي التي كان يقرشها في منور البيت والتي كان يحتفظ كل من ركابها القلائل بمقعد جلوسه بها في بيته.. لحين الركوب بها في حينه.. إلى آخر ما وصل إليه ذلك الباب الواسع.. ولعلّ تسميتنا لكتابينا المطبوعين والمجموعة بهما تلكم الحلمنتيشيات.. بالمركاز.. إنما كان إخلاصاً منا (للمركاز) في حياتنا.. المركاز.. بما فيه من حياة.. وفن ـ وأدب ـ وتاريخ.. المركاز الذي نعتبره في تاريخنا الممتد ـ النادي الأدبي.. دون تسمية أو تدشين..

ولعلّ ذلك من الغريب.. كلون آخر من ألوان الوفاء ـ أن تتوالى قوافل ذكرياتنا بالقرب من الجبل الذي صار سهلاً.. وتحت غصون الأشجار بالهدا يزخرف جو سمائها الغيم اللطيف ورذاذ من هتانه المتقطع.. ووشوشات من مائه.. وهمسات من زقزقات عصافيره.. ونغاريه.. في مركاز الصديق محمد عمر توفيق فتتصل نوازع الخمسينات بالثمانينات.. في ذهن سابح.. غير سارح..؟

وأذوب بعد ذلك في دنيا الذكريات.. نفساً شفافة تحملني وأنا بالهدا.. وفوق قمّة الجبل أكسيت غمامة داكنة.. طائرة.. وكأنها بساط الريح السحري.. فأجدني في لحظات.. في محلة اليمن بيتنا القديم.. بسوق العلوي في جدة أرى من خلال أرضية الروشن الخشبية منظر الكراسي الشريط عليها الرجال وكأن على رؤوسهم الطير ينصتون إلى الراوي.. يسرد عليهم في صوت منغم مؤثّر فصلاً مثيراً من فصول سيرة عنترة بن شداد.. وهم أبصار شاخصة إليه.. وأسماع معلقة بشفتيه وقد نسوا فناجيل الشاي ـ أو القهوة ـ أو القشر وهو غلاف حبات البن أو النعناع وقد برد ما فيها وكأنها لم تكن.. لأن شاربيها لم يكونوا أمامها..

بل كانوا وراء مسيرة عنترة في البراري والقفار..

وأجدني ملزماً لإبراز شخصية الراوي في حياتنا السابقة.. فلقد كان للمقاهي الشهيرة لدينا رواتها يقرأون لزبائنها كل ليلة.. إحدى سير.. الزير سالم.. أبو زيد الهلالي ـ الظاهر بيبرس.. عنترة بن شداد.. وهو أحبهم للنفوس.. وبقدر ما تتوفر للراوي ذلاقة اللسان وحلاوة الصوت.. وحسن السكوت لدى المقاطع الهامة.. يكون الإقبال عليه وعلى المقهى المخصص له.

وللرواة الشعبيين بعد ذلك قدرتهم الفائقة على اختيار النقطة الحساسة من الرواية يختمون بها القراءة تشويقاً واجتذاباً للزبون السامع لحضور التفصيل فيما تلاها في الليلة التالية. وتحضرني بهذه المناسبة أقصوصة صغيرة تضفي على ما نقول تفسيراً واضحاً.. وعلى براعة الراوي بأهمية كبرى.. والأقصوصة تقول:

كان من بين المستمعين إلى أحد الرواة لسيرة عنترة رجل لم يطق أن يقف الراوي عند فصل حساس انتهت نقطة الرواية فيه إلى وقوع عنترة أسيراً لدى أعدائه سجيناً لديهم.. فما يكاد هذا الرجل يصل إلى داره ويتصوّر أن عنترة الفارس المغوار والشجاع المحبوب ملقى في الأسر حتى أظلمت الدنيا في عينيه.. فركل طبلية العشاء.. ونهر زوجته وأرغى وأزبد بما لا يحسن قوله من رذيل السباب والشتائم.. ولم يطق صبراً.. بل قام من داره وذهب إلى الراوي في بيته وبعد أن طرق الباب وفتح له.. طلب مقابلة الراوي.. الذي كان يتهيأ للنوم.. وبسط له حالته النفسية لا تطيق أن يكون هو هانئاً بحياته.. وبعشائه.. وبأهله.. لن تجد الراحة.. ولن يجد النوم إليه سبيلاً وعنترة البطل في سجنه بين أيدي أعدائه.. فأفهمه

الراوي بأن الموعد للفصل التالي الليلة التالية في المقهى.. فأجابه لكنني لا أستطيع الصبر إلى ذلك الوقت.. بتاتاً وابتدأت المساومة في مهارة من الراوي، وفي اندفاع من الرجل المتلهّف على إطلاق بطله من سجنه.. وبعد حساب دقيق لحصة الراوي من دخله الرسمي بالمقهى.. ومما يحصله خصوصياً.. مما يدفعه له الزبائن مناولة.. استعد الرجل للدفع.. ودفع ذلك فعلاً.. وحينذاك أحضر الراوي الجزء المطلوب من السيرة أخذ في سرد الحوادث والأحداث اللتين انتهيا أخيراً بحصول عنترة على حريته وخروجه من سجنه..

وهكذا تنفس الرجل الصعداء وعاد لبيته حيث تناول عشاءه هنيئاً مريئاً بعد أن وقف قبالة الزير المغربي وأخذ ترويشة رائعة رج بعدها العراقية والفوطة وراح في سبات عميق تتخلّل أحلامه رؤية بطله المغوار وقد شاهد عبلة وأخذ يبثها لواعج الفراق فتنهد الرجل بدوره وأزعج زوجته النائمة إلى جواره.. شارحاً لها ما كان بين عنترة.. وعلبة.. بعد فكاك البطل الأسير..

هكذا كان الراوي ـ في المقاهي.. ببلادنا، وكذلك كان تأثيره ونفوذه.. مما جعل لكل بيت راويه المفضّل.. فقد درجت بيوتنا ـ بالحجاز ـ لآنذاك جمعاً لشمل العائلة وقضاء للسمرة فيما يشوق ويروق على أن يكون لها راويها.. وغالباً ما يكون واحد من الصبيان طلبة المدارس..

وأتصور في سياحتي الفكرية كيف كنت في بيتنا الراوي لتلك السير.. نستأجر أجزاءها من العم الموصلي بالحراج.. ثم من العم محرم بسوق الجامع.. وكلما انتهى جزء أعدناه لاستئجار الجزء التالي له..

حتى تنتهي سيرة عنترة.. فنبدأ بسيرة بيبرس ـ أو أبي زيد الهلالي ـ وكان نصيبي بالبيت من الحفاوة والإكرام نصيب الراوي في مقهاه ـ فمن بعد غروب الشمس وانتهاء صلاته.. توضع بالشتاء المساند في ركن من أركان المجلس أو الصفة.. ثم يطبق اللحاف أربع طبقات ليحل محل المقعدة إن لم توجد.. وعلى طبلية صغيرة توضع القمرية.. وأمامي طبق به بعض حبات من النبات الشيناوي.. وما تيسّر من نُقُل الشتاء مع أبى فروة.. وأكواب السحلب.. ويتحلّق أمامي في حلقة ملمومة أفراد العائلة من السيدات الطاعنات في السن.. والانصاف.. والبنات.. والصبيان لأسترسل في سرد إحدى تلك السير..

أما في الصيف فينتقل المجلس بترتيباته ولوازمه وآدابه وتقاليده إلى السطح الحليق ـ أو ذي الطنف الواطي ـ ولا يختلف عن سابقه إلا في إحلال كؤوس السوبيا.. أو أكواب عليها الزبيب النباتي.. محل السحلب.. والشاي..

ويخفق قلبي خفقاً رقيقاً متصلاً باستعراض تلك الصورة التي أكتفي بلقطة منها ليرى أبناء الجيل الحاضر أن البون وإن كان شاسعاً بين المسلسلات البوليسية أو سواها يتحلقون لسماعها من المذياع اليوم.. أو من التلفاز حيث يقوم المذيع.. أو مراقبة البرامج بما كان يقوم به الراوي في المقهى إلا أنه متحد في الوقوف بهم في نهاية كل حلقة لدى النقطة الحساسة منها.. مما يثبت أن لا جديد في الأسلوب البشري إلاّ في استعمال الأدوات الحديثة بدل القديمة لإبرازه.

(٢٨)
زقاق المضاربة وَكَشّ التراب

.. ويستمر الخفقان بقلبي وجيباً عالياً يخضع سمعي لدقاته.. وتتركّز نظراتي على مرائيه البائدة.. فأتصور بيتنا القديم، والزقاق، والبرحة، والمدرسة، وما كان يجري بين كل منها.. وفيه من عادات يومية وتقاليد.. فأجدني باعتباري الصبي الصغير في العائلة مكلَّفاً في الصباح بحمل زبدية الفول وبعض القروش لقضاء العيش الصامولي، والمفرود، مراعاة للأذواق المختلفة بالدار.. وملء الوعاء بالفول وبالسمن البلدي أو بعض الطحينة أحياناً.. والعسل الأسود.. كعادة مطردة لا تختلف إلا في يوم الجمعة حيث أصحب والدي إلى الحلقة.. ومن بعدها إلى دكان المطبقاني لتحضير الفطائر ـ المطبق ـ المالحة منها بالبيض والمفروم، والحلوة بالجبنة الزقزق والسكر، أو بالموز والسكر..

ولا نكاد نحمد الله عند آخر لقمة من الفطور حتى أسارع إلى المدرسة وبين يدي بعض كتب الفقه أو النحو أو سواهما.. متمتماً بما فيها حفظاً بالغيب كالمويه، أو كالبلبل، كما كنا نسمّي الحفظ المضبوط.. والسير على قدمي الصغيرتين حافياً إن قدم مداس العيد أبو خرزين، أو منتعلاً إياه إن كان به رمق، وبالمناسبة فقد فرحت زمناً طويلاً

بحذاء كنا نسميه ـ التلِّيك ـ وهو من نوع الشباشب.. كان قد أهداه إليّ أحد أخوالي في عودة مباركة له من بومباي حيث كان يعمل موظفاً لدى الحاج محمد علي زينل صاحب ومؤسسة مدرستنا بجدة كما علمت فيما بعد..

وكانت الفسحة لنا مصدر بهجة ووقت أنس وانطلاق، نتمرّن فيها على المطارحة، باطاً لباط، أو باطين لباطين، والمطارحة نوع من المصارعة الحرة الحديثة، أو نلعب الكبت ـ مثلاً ـ بعد أن نملأ بطوننا من القتاء أو الخيار بالشرش.. أو من أقراص الدخن بالملح بعض الأوقات أو نقوم ـ والحق يقال ـ أحياناً بمساجلات شعرية من محفوظاتنا، تقوم القاعدة فيها على أن يبدأ كل من عليه الدور ببيت شعري يكون أول حرف فيه آخر حرف من البيت الشعري للقائل السابق.. ثم نعود إلى فصولنا بمجرّد سماعنا ـ الصفيرة ـ الطويلة معلنة انتهاء الفسحة.. وهكذا دواليك.. بين كل فسحة وأخرى حتى يحين موعد الانصراف في الظهر، لأعود راكباً رجلي حافيتين أو منتعلتين من المدرسة إلى البيت لأحمل لوح العيش إلى الفرن.. وهنا كانت تتجلّى مهارات الصبيان أمثالي في تقديم ألواح عيشهم عن الآخرين في ـ السرى ـ على امتداد الصف الطويل المتلاصق.. يتميّز كل لوح فيه بنوع الخرقة المغطّى بها، مع احتمال نشوب المعارك اليدوية، المضاربة، بين صبي وآخر، لا تفصلها إلاّ كلمة تخرج من بين شفتي الفران في صوت غليظ مفزع ليتقرر لمن الحق في سرى الألواح.

وكانت لنا في الفترة بين نصفي النهار نقضيها في الذهاب لبيوتنا للغداء والعودة ثانية للمدرسة.. فرصة لتكوين الصداقات مع زملائنا بين

مجاذبة الأحاديث المختلفة والمزخرفة بألوان من خيالات المراهقة.. ومن حسن حظي أن عاشت لي صداقات متينة من ذلك التاريخ إلى وقتنا الحاضر، أو القريب منه.. وماتت خصومات صبيانية كثيرة.

وما زلت أذكر أنه كان هناك زقاق ضيق قرب المدرسة سميناه ـ زقاق المضاربة ـ وكان الموعد الطبيعي لملتقى كل خصمين يريدان بعيداً عن الفصول أن يصفيا حسابهما بين حلقة من الزملاء كشهود على الغالب والمغلوب.. وكنظارة متفرجين همهم أن يثيروا أوار المعركة بواسطة حفنات من التراب يكشونها بين الغريمين للإثارة، وللاشتباك.. ولاستمرار المعركة.. ومن هنا جاء تعبير ـ كش التراب ـ الذي أحيينا تداوله حديثاً لنستمتع كباراً بما كان مصدر تفريج عن غرائزنا المكبوتة صغاراً.. حيث لا مجال لها بعد ملاعب الكرة.. للتفريج.. نرى فيها ـ عكس ما يراه سوانا من الكبار والصغار.. فرصة حيوية حية لتحريك ماء حياتنا الفكرية.. الاجتماعية، الآسن.

كما كانت أيام الجمع، في الحواري، والأزقة، والبرحات، وعلى شواطئ بحور الطين وأبحر وأبي العيون.. أعياداً شعبية تمارس في ساحاتها كل الألعاب الشعبية السالف ذكرها في أحد فصول هذا الجبل الذي صار سهلاً..

وربما انقلب أحد هذه الأعياد إلى معركة ضارية تبدأ بالأيدي والأرجل لتنتهي بالحجارة بين أبناء محلتين متجاورتين، ولا زالت جبهتنا تحمل آثار بعضها مما يثبت لنا بعض البطولات الصبيانية.. الزائلة.

أما أيام الأمطار، ومن الغريب أنه كانت لها مواسمها المنتظمة في ذلك العهد القديم البائد ـ فقد كنا نذهب خارج سور المدينة ـ جدة ـ

بقصد صيد الدَّبا والجراد، وقطف أوراق الشقلا، بقلا، خبيزة، أو سرقة ما تيسّر من الحبحب ـ البطيخ ـ من بستان عبد الجليل وكان موضعه بعد مقبرة الأسد على يسار الصاعد من طريق مكة ـ إليها..

وكانت المتعة الكبرى في خروج أفراد العائلات، الرجال والشباب، يصحبهم الأطفال لمشاهدة مياه الأمطار المتجمّعة في الصحيفة، أو في الشرفية، فيتخذون مقاعدهم على رؤوس الروابي بهما.. يشربون الشاي.. ويستمعون إلى المجسات، أو على من يقذفون بأنفسهم وسط المياه للسباحة فيها، كأبطال سباحة لم تقنعهم أمواج بحر الحجر أو بحر الطين.

كما أن من لذاتنا الكبرى صغاراً.. صيد الطيور.. نلتمسها في الكِدْوَة.. وفي المشهد ـ مصلى العيد ـ وفي سواهما من المحلات خارج السور، وكان صيدها فناً في ذاته وفي مشتقاته حيث نتفنن في عمل الشباك، وفي الأغاني نستدرج بها مع الصفير المناسب لكل منها.. العصافير.. والهداهد.. وما إليهما.. من أمثال.. يا عصيفر بلنصا.. ويا هديهد هلاوا..

ولقد كانت أكبر الدروس خرجنا بها من هواية الصيد منذ الصغر.. الصبر، الصبر الجميل لا تطيقه طباع الصبية المتحرّكة لا تستقر على حال.. حين يربض الواحد منا زمناً ليس بالقصير عند طرف الحبل لشبكته في انتظار الطير يتهلى قريباً منا مدفونة تحت الرمل كمن يحوم حول الحمى.. في أناة.. وغفلة.. بل وفي دلال أحياناً.. كما يصور تلك الحالة بحق.. المثل القديم القائل:

الطير يتفلى.. والصياد يتقلى!

(٢٩)
صور شعرية.. شعبية

وإنني لاحتفظ داخل ظرف أصفر باهت ببعض ما لم ير النور من شعري.. لأجد المناسبة اليوم فيه.. بعض قصائدنا تمثل شيئاً مما سلف ـ ولأقتطف منها ـ رغم الإحساس برذيلة تكرار الاستعراضات الشعرية.. بعض الأبيات ترسم صورتها الشعبية صوراً شعبية يستدعي البحث وطبيعته الاستشهاد بها.. في حدود الضرورة اللازمة.. دون استكمال لها.. أو ترتيب.. في سياقها المسرود..

فمن قصيدة.. عن بيتنا القديم الكبير.. بعنوان "كوني الصغير!.." :

عشت في بيتنا الكبير تحته السوق كله
أشهد الدرب.. في المسير ضاق بالناس حفله
أرقب البائع الحقير طفف الوزن رطله
جنبه الحاذق البصير شاع بالذكر فضله
اجتلى صانع الفطير رائق الصنع شغله
خافضاً حسه الأثير يوجز الصبر قوله

أو أرى "السيد" الشهير ذاع في الحي فوله
يلتقي عنده القصير ما علا الشبر طوله
صوبه المبسط النضير راق للعين شكله
إنه السوق.. كالمصير صفت الرزق سبله
إنه كوننا الصغير طاف بالفرع أصله

(في محطاته القصار)

يعرض النفس.. والضمير علم المرء دخله
فيهما.. الكر.. والفرار..
أول الناس.. كالأخير سابق الجسم ظله
ويل من فاته القطار!!

ومن قصيدة أخرى.. لم أجد لها عنواناً.. وليس من المهم أن يكون لها عنوان.. أقول:

ومن السبت.. للخميس نطلب العلم.. في الفلاح
نحفظ النحو.. والحساب في اجتهاد.. وفي مرح!
نأكل الجبن.. والتميس في غدو.. وفي مراح
يستوي القشر واللباب بين وقت الفسح
عند من خاب.. ومن نجح!!
ومن الصبح.. للمعاد طول يوم الجمع..
نلعب الدوم.. والكبوش والمداوين.. والكبت
أو نصيد الدبا.. الجراد إن عدا.. أن قبع

نصرف البعض من قروش بعضها يورث الشبع
في المداريه.. في المتع!!

كما نجد أن بعض فقرات قصيدة.. الراوي.. والمقهى.. تؤكِّد في صدق.. وإخلاص.. وحنين.. بعض ما أسلفنا عن شخصية الراوي ذاته.. وعن أثر المقهى البلدي في حياتنا الماضية المنكمشة في حلزوناتها المهملة الباقية.. وتقول بعض هذه الفقرات:

وإذا أقبل المساء
وانقضت.. للعشا.. صلاه اجتلى السوق.. في بهاه
حلقت وسطه الصفوف..
في المقاهي.. أرائكا أمها الكل.. واتكى
يشرب الشاي.. لا الكيوف
يسمع الراوي العجوز بين ما جاز.. لا يجوز
يحسن السرد.. والوقوف
مده الليل ـ قنطره لابن شداد.. عنتره
قاتل الناس بالألوف
قاهر البيد والبواد رافع السود والسواد
سمعة حرة الطيوف
راكب ـ الأبجر ـ الحصان خالد العصر.. والأوان
ناشر الرعب والحتوف
اعشق الليل والنهار من كبار.. ومن صغار!

دأبـه الـكـذب.. والـشـجـار رائـج الـصـنـف.. والـشـعـار!
قـد عـلا صـيـتـه.. وطـار مـا لـدى نـارنـا خـيـار!
نـاصـع الـلـون.. والـجـرار والـفـتـى الـغـض.. والـكـبـار!
مـا عـلا خـبـزه.. الـغـبـار بـيـن عـسـر.. وفـي يـسـار!

حتى نصل بعد زمن إلى صورة من صور فتياننا الحارويين آنذاك تجمعهم المقهى.. منتدى سمير.. ومجتلى رجلوة.. وملتقى طرب غير مائع.. ولا مجلوب.. في جزء من فقرة من مقطوعة تقول:

أو أرى صـفـوة الـصـحـاب مـن فـتـواتـنـا الـشـبـاب
"جـوقـة".. شـدوهـا قـطـوف غـنـت "الـجـوك" فـي نـهـم
سـاحـر الـصـوت.. والـنـغـم نـضـبـط الـوقـع.. بـالـكـفـوف
بـيـن صـهـبـائـهـم لـقـا زان غـصـن الـنـقـا
كـلـلـت هـامـه الـحـروف.. فـتـيـة دأبـهـا الـمـدى
الـهـوى.. نـاقـع الـصـدى مـازه كـونـنـا الألـوف

وإنني لأرجو لهذه الصورة الشعبية.. على تواضعها أن ترى النور كاملة.. في وقت ليس بالبعيد.. إن شاء الله ولعلّ فيما ساقنا إليه الاستطراد محمولين فوق سحابة رائقة.. من سحب الهدا المتناثرة في يوم غائم بمجلس الصديق الوزير ما يؤكِّد بعض حسنات هذا الجبل الأشم العالي.. الجبل الذي صار سهلاً.. ما بعدنا عنه بالذكرى حديثاً يطول.. ألا لنعود إليه بالقلب هوى يرفرف.. وحباً يتأكد.. بما كان له.. وما صار.. من حسنات.. وحسنات!.

(٣٠)

قصة قصيدة.. جدة!

وقبل أن أقطع صلتي بالشعر الموؤود والمنشور ذكريات مصورة حية.. وقبل أن أودع مدينة جدة في سياحتي النفسية.. وأنا قابع بالجبل.. فلا بد من وقفة قصيرة أستعيد بها وفيها ذكريات أول محراب شعري خلوي لذلك الفتى الحالم الذي كنته يوم أن عرفت الجبل.. وبعد أن أودع قلبي وديعته الوجدانية فيما قالته لي وديانه.. وزهراته.. وروابيه.. وغدرانه.. تغن بي حباً.. وغنني شعراً.. فأنا بلادك جزءاً من كل.. فسأكون لك الوقود.. والزاد.. وسأتراءى لك الأطياف في مستقبل حياتك تصليك بالشواظ يتلوه الشواظ.. وتحملك بعيداً عني بين صخور الحياة.. وأصلادها اللاهبة.. وصحرائها الجرداء.. أو تتلاعب بك أهواؤها الهوجاء.. مقهقهة ساخرة، لاهية فوق أمواج الأيام الهادرة.. وبين ثناياها الساكنة.. فلقد حملني بساط الريح.. السحابة الداكنة من الهدا بمجلسي به في ضيافة الصديق محمد عمر توفيق.. ومن فوق الركيب السندسي الأخضر إلى جدة.. وما زالت ترفرف.. وتطوف حتى استقرّت بي أخيراً فوق الهامات الصغيرة الحالمة لتلك الروابي المبثوثة.. والتلال المنثورة آنذاك خارج سور جدة.. وفي المنطقة الشمالية الغربية منها حيث تنبت وتتناثر.

وعلى مقربة مما كان يسمّى يومها.. سقالة الإنجليز.. لساناً صغيراً من ألسنة البحر.. قامت هناك.. ولأمد طويل.. صفوفاً صغيرة متباعدة الظلال متقاربة الخيال.. حتى أتى اليوم الذي زالت نهائياً فيه.

فأذكر.. وأتذكّر كيف كنا يومياً ودون انقطاع نودّع المدينة ـ جدة ـ في الأصيل وقبل الغروب أحياناً.. شأننا في ذلك شأن بعض سكانها المرتادين مجالسهم هناك.. والمعتادين على ذلك الارتياد اليومي.. نزهة للنواظر.. ومتعة للخواطر.. وفسحة للأجساد من عناء أعمالهم اليومية المكرور..

وعلى رأس تل.. عرف بنا.. كما عرفت جماعتنا به وقفت سحابة الذكريات حيث كنا نقضي الوقت فيما بين المغرب وقرب العشاء أو ما بعده بقليل.. صامتين إلا من هواجس نفوسنا.. هائمين مع خيالاتنا الشابة لا يحدها جو ـ أو يقف دون حدودها فضاء فكانت تنسج في رقة ـ وتأمل ـ وهدوء الخيوط الشعرية الأولى كما ينسج الفجر خيوطه الأولى يستقبل بها الدنيا.. تستقبل به الناس الحياة..

ولعلّ من نعميات الجبل أهوتني قمّته وسحابته الداكنة وقفت بي لدى أعزّ الأماكن لدى نفسي.. في مسقط رأسي أنني استروحت بتلك الوقفة الصغيرة ما غطت عليه الأيام.. وتراكم فوقها غبار الأعوام المتلاحقة دون حساب للزمن وفي غفلة عن ركضة اللاهث.. فقد تهيأ لي ذات ليلة أني نظمت قصيدتي ـ جدة ـ في جلسة واحدة فوق تلنا المعروف بنا.. والمعروفين به.

وكنا ثلاثة أخوان أصدقاء.. عبد الحميد مطر.. عمر عبد ربه.. الداعي لكم بطول البال على ما يكتب.. وما تقرأونه.. أو لا تقرأون..

تمرّون به لماماً.. أو دون علم بوجوده في هذا الحيّز من عكاظ يتوارى به ظل هذا الجبل الذي صار سهلاً.. ولقد ألفنا ثلاثتنا أن نفارق سور جدة أصيل كل يوم لنقضي وقتنا الهنئ الساجي بين تأمل.. وخيال.. وذات ليلة ـ وعلى غير قصد ـ سرحت غير عامد.. لا مستهدف من خواطري شيئاً معلوماً وما أن همهمت في خفوت.. ثم في صوت مسموع.. وفي أعقاب حديث رائق عن جدة مادة ومعنى.. ومسقط رأسي ـ بأول بيت:

لك يا جدة الحبيبة في القلب مكان محبب مألوف

* * *

حتى توالت الصورة في خيوط تشبه إلى حدٍّ كبير خيوط الدانتلا تنسجها يد الفن.. غرزة إثر غرزة.. بيتاً بعد بيت.. إلى أن تكوّن هيكل القصيدة لا ينقصها إلا الكتابة.. فالتصحيح.. فالتنقيح.. فاللمسات الأخيرة.. لتكون..

ولقد كنا ثلاثتنا في شبابنا.. على حظ كبير من قوة الحافظة.. فما أن وصلنا مركزنا الليلي للسهرة ـ بيت العتيبي ـ حتى جاء شيخنا يرحمه الله بقرطاس وقلم ـ فتم الإملاء.. وكملت القصيدة.. عن البلدة الحبيبة المحبوبة نشترك كلنا في التعصّب لها.. وفي التغنّي بها.. حباً لا تقوم أصوله على معالم جمال بارزة.. أو مذكورة.. ولكنه ذلك الحسن ـ والحلاوة على الأصح ـ من النوع المستور المحسوس.. أو الخفي المبين.. كما سميناه في قصيدة أخرى من حديث غزلي طويل..

وربما كانت الأنانية الغشيمة لا يبررها مسوغ عقلي بارز هي التي تسوقني لتخصيص هذه القصيدة عن جدة ـ ذكرى ـ وموضوعاً قد لا

يشاركني الكثير ـ أو الكل في جدارتها بهما وربما كان الدافع كذلك لون من ألوان النرجسية.. ولكني بباعث مجهول صادق أستطيع أن أؤكد أن الأمر غير ما ورد وما قد يرد.. ولكنه ما قد أستطيع إيجازه نزولاً على التعليل العقلي الواعي في سرد العلة والمعلول.. في الآتي:

فأولاً ـ لقد دفعت هذه القصيدة فيما بعد بعضاً ممن أحب وأقدر لمعارضتها ـ وفي مقدمتهم الصديقان الشاعر الكبير الأخ حمزة شحاته ـ والشاعر المجهول أخي المرحوم محمد سعيد عتيبي أما حمزة فقصيدته منشورة معلومة وأما العتيبي فقد ضاعت قصيدته فيما يلوح لي فيما ضاع من أثره.. وآثاره..

وثانياً ـ وهو الأهم ـ فقد أصبحت هذه القصيدة لدى قارئيها فيما بعد إحدى مصادر التفسير لهذا الحب اللاذع والهادئ معاً لهذه البلدة ـ جدة ـ ممن نزح إليها، فاستوطنها.. من إخوان لنا من مكة ومن المدينة.. ومن سواهما من سكان هذه المملكة الأوفياء.

وثالثاً ـ ولعلّه النزعة الوجدانية الملحّة الصادقة.. الرغبة حيناً في الخروج من صدفتنا القديمة.. يسميها الناس صفة التواضع.. ونسميها القوقعة الذاتية المباركة.. نتنفّس بعيداً عنها.. هواء جديداً علينا.. ونفرح قريباً منها بأصوات غريبة عنا..

ولا بد لاستكمال القصة.. من ورود الصورة ذاتها.. أو معظم أجزائها بالأحرى.. لسد الخانات الواردة سلفاً.. في التفسير المظنون.. أو في التعليل المرجو القبول..

(٣١)

هل أنت حي..؟!

واكتفي.. رحمة بالقارئ إن وجد.. وتألفاً له.. وجلباً لسواه حين يوجد.. ببعض أبيات من كل مقطع رئيسي من قصيدة جدة التي سبق ذكر قصتها.. فهي ـ القصيدة ـ في جملة مقاطعها طويلة نوعاً ما.. مسترسلة الذوائب.. مرخية الأطراف.. وتبتدئ هكذا:

لك يا جدة الحبيبة في ... النفس مكان محبب مألوف

طار فيه صدى الجديدين.. ... بالأمس.. وما زالت الحياة تطوف

أنت جزء من موطن ملء قلبي ... بعضه المستطاب والمألوف

أنت في ومضة الخيال بعيني ... الآن خود جم الحنان المطيف

قمت للقاصدين.. بسّامة الثغر ... لعوباً.. تلقاك منهم ألوف

فكأن السهل الفسيح فناء ... والقرى فيه والضواحي ضيوف

وكأن الجبل دونك في الأفق ... مكان الإشراق سور مطيف

وكأن التلال حولك بالشط ... حراس مدى الزمان وقوف

وكأن الخضم صب على الباب ... طريح.. وأنت عنه عيوف

يترامى هوى ـ فتقصينه عنك.. ... فيرتد.. والمحب ضعيف..

ها أنا الآن فوق تلّي.. ساجي | الطرف يسمو بي الخيال المشوف
والدراري مطلة ترهف السمع.. | عليها من الحياء كسوف
والعيون الحيرى توصوص في الشط | فينأى بها الفؤاد اللهيف!
هكذا أنت فتنة من كوى الفكر.. | يراك المدله المشغوف
ولدى عالم الحقيقة شيء | دون هذا ـ لولا هواك العنيف
أنت ذاك الميناء.. والبلد | القاحل إلاّ من الهوى.. يستضيف
فإذا شئت أن يصورك الحسن | فما بعدما يرى.. موصوف!
وإذا شئت أن أكنى.. ولا مهرب | من ذاك يبتغيه الأنوف
فاعلمي إنما الحبيب حبيب | كيفما كان.. والألوف ألوف
والمحبون في البرية أغراض | رماة سهامها التعنيف
والملام البغيض مبعثه الجهل.. | وبغض الجهول ليس يخيف
والمراءون أدعياء وطبع الحر | طبع يشينه التزييف!
فإذا قلت.. مرة.. فلك الويل | .. فلا غرو ـ فالحياة صنوف
إنما سرب الملال لقلبي | أمل ذابل ـ وعيش سخيف!

* * *

وهكذا كان للسحابة الداكنة.. بنت الجبل.. حملتنا من الهدا إلى جدة.. مدينة.. وضواحي ومشارف.. فضل الذكرى عشناها دقائق حية في وقت لا نصيب لنا من الحياة فيه إلا العيش.. موجزاً في يوميات متداولة مكرورة فيما يباشره.. العائش.. لا الحي.. والبون شاسع بين المعيشة والحياة كما لا أحتاج أن أقول.. بأسلوب من قال.. هل أنت حي؟!

وهكذا أيضاً بعد أن قضينا وطراً ساقتنا إليه حوافز مخبوءة يدفعها الحنين القديم عدنا إلى حيث كنا بمجلسنا فوق قمة الجبل.. انتقلنا فيه من موقعه الأرضي فوق الركيب بساطاً سندسياً أخضر.. إلى داخل الدار.. حيث الدفء.. والإشراق من نافذته على مكان الطباخ..

وهكذا ـ لثالث مرة ـ استفقت من حلمي الطويل الرائع على الحقيقة المادية.. تلمع في اللهب ينبعث من الحطب تتصل وتتابع في جملة قصيرة لها مدلولها تحت قدر السليق.. تشخص الأبصار بين الفينة والفينة إليه.. ثم لا تطيق النفوس خبراً فإذا الناس علامات استفهام لهفة وقلقاً.. هل رمى الرز فلان؟.. ورمى الرز في عرف واصطلاح آكلي العربي إيذان رسمي.. وإعلام لحملة الموائد بمباشرة واجبهم.. فرداً للصفرة كما نقول.. وصفاً للأطباق الفارغة.. وصفها بحساب يضع في اعتباره الأول عدد التباسي.. وجملة الطاعمين.. مع مراعاة دقيقة لمكان التبسي الممتاز لتتصدره.. كعلامة بارزة رأس الخروف بما فيها أبو الكلام.. لسانه الطويل الأخرس.. أو القصير لا يفتر عن الحديث.. يولد الحديث.. على طريقتنا.. فيما نحن فيه..

وأخيراً.. جاء الفرج.. في قولة موجزة موجهة إلى المضيف صاحب الدار.. تفضّلوا.. فتفضلنا.. دون ترتيب في الجلوس.. لا في المراكز.. ولا في الأحجام.. وقد تحاشيت جهدي أن يأتي مكاني بجانب من لم يكن همهم من المهندسين يومها إلاّ الحديث عن عمليات الجبل الحبيب.. وينتهي العشاء.. سليقاً ممتازاً.. تناولناه بمرابيع الصديق محمد عمر توفيق وكنا قد أنهينا قبله الشوط السابع من لعبة ـ الشطرنج ـ حيث كتب لنا الفوز في معظم الأشواط بفضل استقلالنا بالرأي.. وانفرادنا

بالخطة السرية عكس خصمنا الصديق الذي فتح لأضيافه مجاملة باب الشورى على مصراعيه فكانت الآراء تترى لديه بتحريك الرخ. . أو نقل الفرس. . أو النط بالبيدق بيتين دفعة واحدة. . أو بسواء ذلك. . فتكون هذه الخطط المكشوفة الشائعة باعث بلبلة وضعف له. . ومصدر قوة لنا في الترتيب الحاسم. . تتلوه بعد حركات. . الجملة التقليدية تزف لنا النصر. . كش شاه.

والواقع أن غرقي في الشطرنج إنما كان تحاشياً وبعداً عن الاندماج في عملية سماع ما حوته التقارير الخاصة بما كان يفعل بالجبل حينذاك وما كان يتناقله بالرواية ـ وبالأوراق بين المعلم ـ وهو الشيخ محمد عوض بن لادن ـ وبين وزير المواصلات الصديق المضيف. . وذلك خشية أن تضعف مقاومتي أخيراً، فأوافق على ما اقترحه الصديق بقيامي بزيارة خاطفة للجبل لأخذ فكرة عن الطريق فيه وقد تمّ في معظم أجزائه. . بل وبنزولي منه. . بإذن خاص. . وأشهد أن إصراري على عدم رؤية حبيبي تحت الماكياج إنما كان قوياً لم تهن العزيمة فيه. . ولم تتزحزح الكلمة به قيد شعرة عما سبق إعلانه.

حقاً لقد علّمني هذا الجبل الذي صار سهلاً ما لم تعلمنيه المواعظ المرتلة ينتهي الولع بها دون الأخذ بفحواها. . عند ذهابها أدراج الرياح. . أو لدى استقبالها في أدب وتبتل ينتهيان كذلك بوقوفها بحدود طبلات الآذان الصماء. . أو اختراقها إياها لتدخل من أذن. . ولتخرج من أخرى. . عكس التعليم الحي النافع من الجبل تتوفر فيه مزية القدوة الحية. . والمثال العملي الصامت.

فعن طريق هذا الجبل بركوبي الحمير إليه ـ تعلمت الصبر ـ وأتقنت

التأمل.. وسلكت منه وفيه أولى خطواتي بدروب الفلسفة لا تغني عن الشعر.. ثم باندماجي به كاشفاً لي في صراحة وبساطة أعماق قلبه تسللت داخل البوابة الخضراء لأستقبل هناك دنيا الشعر.. لا تعترف بالفلسفة.. ولا تضع أرقاماً للتاريخ.. عازفة تمام العزوف عن نصب الموازين أو مطففة لأقوال الناس.. في الناس!..

(٣٢)

الرجل الشاب!!

وبانتهاء العشاء.. سليقاً.. واللعب.. شطرنجا.. والقهوة العربية سادة وبسكر.. والشاي أخضر.. وأسود.. صرفاً من النعناع وممزوجاً به.. أخذ الصديق محمد عمر توفيق بطريقته العالمية في الزن المركز يودود في سمعي بما تم عمله في الجبل.. طريقاً.. وقد تم معظم المطلوب تقريباً.. وكذلك بما هم بسبيل إتمامه فيه.. خاصاً ببعض الاحتياطات.. وبالتغلب على بعض العقبات الطارئة برزت أنيابها الكاشرة فجأة وعلى غير انتظار..

والصديق الوزير لعلم من لا يعلم.. ولتجاهل من يتجاهل.. حجة وبحر حبر فهامة في إطلاق الأسئلة.. كوابل من الغيث.. يرد ببعضها على سؤال إليه.. بعشرة من أمثاله.. كالحسنة الطيبة في محلها المختار.. ونيتها المباركة.. وقد راقني في بداية الأمر وحتى نهاية السمرة أن تكون تلك الأسئلة سبباً مباشراً وغير مباشر في نشر كثير من الحقائق والمعلومات.. كما راقني أكثر.. أن أكون.. سميعاً.. لما يجرى من بحث.. واستطلاعات وتحقيقات عن الجبل بين المسؤول وبين بعض مهندسي وزارته.. ولكن لم يكد الكلام يتناول بعض صفات الجبل

وطبيعته.. وتاريخه القديم.. حتى لعب وسطي قسراً.. وانطلق لساني عفواً فزحفت إلى حيث كانت حلقة الذكر.. وانضممت مشاركاً في الحوحوة.. وفيما خاض فيه القوم..

وكان ما يلي في سطور.. هو الحصيلة النهائية مما دار.. وطال.. دون تنسيق.. أو تبويب.. أو نسبة رواية أو معلومات بذاتها لقائل بالذات..

١ ـ لقد عاش هذا الجبل مطلاً على ما يليه بوادي نعمان من مشاعر مقدسة.. عرفات.. مزدلفة.. منى.. محتفظاً بوقاره الجبلي التقليدي.. دون مشاركة هامة.. أو بسيطة منه.. في تاريخ بلاده..

٢ ـ اعتز هذا الجبل ـ كرا ـ شامخاً بقمته.. ترتفع عن سطح البحر ١٩٥٠ متراً.. وعن سفحه ـ الكر ـ ١٢٠٠ متر.. بينما لا تتجاوز مدينة الطائف التي يسلك طريقاً إليها ارتفاعاً عن سطح البحر إلاّ ١٦٠٠ متر..

٣ ـ ولقد أطبق فاه.. ولملم جوفه على طول المدى.. محتضنا القردة.. علماً عليه وعالماً قائماً بذاته الحيوانية فيه.. منزوياً عن عالم الإنسان ـ ودنيا الناس..

٤ ـ صافح اليد البشرية ـ في امتعاض ودون تودد.. في حدود عام ٤٣٠ هجرية.. حينما جرى افتتاح أول طريق سلطاني بدائي فيه ـ على يد معمره حسين بن سلامه وزير أبي الحسن صاحب اليمن.. زياد.. بما يسمح عرضه لمرور ثلاثة جمال بأحمالها فيه..

٥ ـ ويومها.. ولأول مرة في تاريخه.. عرف الحجارة.. رصفاً.. والبلاط درجات وسلالم عريضة مريحة.. في أجزاء منه.. وأقر الرمال الممهدة من تربته معبراً في أجزاء أخرى من هذا الطريق الجديد به..

ولقد تم إجراء تلك العملية في هدوء وبلمسات رقيقة لم يكد يشعر بمرورها على أجزاء جسده الصلد..

٦ ـ ومن يومها مشت به في راحة واطمئنان ـ بعد رهبة ووحشة ذوات الأربع.. والإخفاف متصلة السير تحمل الميرة.. أو الناس المصطافين..

٧ ـ فشاهد في دهشة واستغراب.. البغال الموقرة بأحمالها.. وبراكبيها.. كما عاين الجمال بهوادجها ـ أو عارية الظهور منها.. تتلمّس في تمهل.. وببطء السبيل إلى هامه.. وألف مستنكراً ربع الحمر القميئة.. بعد أن كانت تحبو.. متلكئة ساقطة.. أو متحيرة في اختيار نهجها الصخري العسير..

٨ ـ ولقد أشفق كثيراً على جيرانه سكان الأودية والمنازل بقمته.. وهم يقومون كوسيلة رزق ـ بأدوار الإدلاء إليه ـ وعلى ما فيه من كنوز طبيعية مخبوءة أو مبعثرة في أغوار.. وبين حفرات..

٩ ـ ولقد زاحم ـ دون قوة على المنافسة ـ بذلك المعبر الجديد ـ رغم بساطته.. طريق السيل في تشجيع حركة الاصطياف بالقلة النادرة تسلك ـ طريق الجمال ـ إليه.

١٠ ـ وابتدأ تاريخه الحديث البداية الموفّقة حين عاش خيالاً.. وتوسّع فكرة بعيدة في أحلام الرجل الشاب.. فيصل بن عبد العزيز.. عام ١٣٤٧.. ثم منذ أن صعد ذلك الشاب الرجل إلى منطقة الهدا.. وجال ببصره في مشارفها.. ورأى أوديتها من قمة هذا الجبل الشامخ الصامت الملتف في صخوره الهائلة يغطّي بها سره البعيد.. مجازاً قريباً اكتشفته بصيرة ذلكم الرجل الشاب.. في تلك الوقفة التاريخية..

١١ ـ ولقد راقب حينها ـ وبعده ـ في صمت وهلع ـ نظرات العيون الغريبة المسلّطة عليه تعاينه المعاينة.. درساً لجوانبه.. وتوغلاً بأحشائه.. وقد خفضت أخيراً أنظارها خاضعة لهيبته ولجبروته فانصرفت عنه..

١٢ ـ ولكنه تابع.. قابعاً.. مضطرباً.. الخطوات البعيدة يمهد لها الدرب وييسر به المنهج ذلكم الرجل الشاب نفسه. فيصل بن عبد العزيز.. مصوباً إليه النظرات نافذة ثاقبة لاستكشاف ماهيته.. وفحص جدواه، وفي بصيرة وأصرار وأخيراً.. وبعد مرور حوالي قرن من الزمان على تعمير أول درب بدائي فيه.. علم يقيناً.. ولكن في صمت وخشوع.. بما تم توقيعه عام ١٣٧٦ بين سمو الأمير الوزير سلطان بن عبد العزيز عن وزارة المواصلات ـ وبين الجندي المجهول المعلم محمد بن لادن ـ عقداً رسمياً يقضي بأن يكون هذا الجبل الذي عاش جبلاً.. سهلاً ميسراً في نفسه وميسراً للناس الطريق لما وراءه من سهول وجنان وذلك ليتم تنفيذ خيال وفكرة الرجل الشاب المشرف على قمّته عام ١٣٤٧.. فيصل بن عبد العزيز.. بعيد النظر.. بما أبصر.. وقدّر!

(٣٣)

ما أشبه الليلة بالبارحة . .

ولقد نسيت . . وكثيراً ما أنسى . . أن أشير إلى أن وصولي إلى الطائف عام ١٣٨٤ كان بطريق الجو . . ورغم البعد الزمني بين أول رحلة بالحمير للجبل الذي صار سهلاً . . ورحلتي هذه بالطائرة . . في عصرنا العالمي الحاضر . . ورغم إيماني بفعل الزمن وحده . . لا تتحكم كثيراً في تحويل مجراه . . لسبب أو لأسباب ما . . القوى البشرية المتطوّرة . . فإنني لم أعقد أية مقارنة بيني وبين نفسي بين ما كنا فيه . . وما صرنا إليه . . لماذا؟

لأننا . . مثلاً بقينا سنوات طويلة جداً نقطع الطريق بين جدة ومكة في يوم واحد على الجمال . . وفي ليلة بطولها على البهائم . . فألفنا الصبر والنصب علامتين معتادتين من عوامل الزمن المطلق . . ثم أصبحنا نقطعه في ساعات على السيارات في طريق غير مسفلته . . وإن كان التعبيد والسيارة دليلين ضعيفين ـ حتى ذلك التاريخ على إمكان تحكم القوة البشرية في القفز بأرقام الأعوام البطيئة كما تلاها . . جزء من الزمن المهدور . . بل لقد كنا نعاني بالسير بالسيارات والطريق كما كان عليه . . أضعاف ما كنا نعانيه على قطعه بين جدة ومكة على ذوات الأربع!

ومن ذكرياتي في هذا الباب للترفيه.. وللحمد على ما نحن عليه الآن.. خصوصاً بالمواصلات أنني كنت أعمل بمكة بينما كانت عائلتي بجدة.. شأني في ذلك شأن الصديق حمزة شحاته.. فكان كلانا يضطر إلى النزول منها إلى جدة مساء الأربعاء.. احتياطياً.. لضمان قضاء الجمعة بين ذوينا.. وكثيراً ما اضطررنا للسير على أقدامنا مع طابور الركاب بضعة كيلومترات.. لبنشرة السيارة.. أو لنفاذ وقودها.. أو لعطل فيها أو لسبب من الأسباب التي كانت تغيب عن أنظار دهاقنة المسؤولين عن الشركة العربية للسيارات التي كانت تمثل ـ كشفريا ـ يعني دملاً كبيراً لا رأس فيه ولا فتحة! ـ في رقاب البلاد والعباد.. بل ربما قضينا في الطريق ليلة بطولها وجزءاً من نهار.. وذلك فضلاً عما كان الراكب منا يعانيه في تكدسه مع سواه بين طرود.. وطرود.. متربعاً.. أو متحوفزاً.. أو محشوراً بين زملائه.. في انتظار قيامها للرحلة دون جدوى.. حتى يصل البشير أخيراً بأن آخر طرد منتظر قد وصل.. بسلامة الله من مكتب.. أو دار فلان!

ولسيارة البريد.. وهي تابعة للشركة المذكورة أعلاه بالأجرة أو بالتعاقد مع المالية.. في تاريخ ما أهمله التاريخ لدينا.. نوادر وحكايات لو سردت بأمانة على شخص من أبناء الجيل الحاضر لظن الحكاية متصلة لا بطريق جدة ـ مكة بل بجزيرة واق الواق.. أو بدغل مجهول من أدغال أفريقيا المهملة. وأذكر أن الأديب المرحوم محمد سعيد عبد المقصود خوجه قد سجل نتفاً من ذلك التاريخ المزعج على صفحات أم القرى الرسمية تحت توقيع.. الغربال.. كما أننا ساهمنا بقسط متواضع أذكر منه على لسان سيارة البريد نفسها تمدّه لأمها في الرضاع.. الشركة

العربية للسيارات ما يأتي:

"أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي"
بلعت مطبات الطريق جميعها وغرزت فيها تاتي. تاتي . تاتي
وبنشرت في كل المحطات دائماً وقد طلعت من جلدها.. كفراتي
ولكن جزى الله السرسيون رقعة أداري بها ما داب من عجلاتي
ولا حط في الجالون خيراً.. لأنه يطير من بنزينه.. بركاتي..

* * *

إلى أن نقول عن بعض مواضع معارك التغريز الشهيرة في ذلك العصر وهو زقاق حداء..

فإن تسألوا عني "الزقاق" يجبكمو برمل غويط لين العضلات
فكم ليلة قد بت فيه.. بطولها وفارقته منها.. لوعد آتي
وما فكني إلاّ بكل تكلف وقوة أيد تحسن الدفعات
فلا تشتموا السواق بالله وارحموا ضعيفا فقيراً.. دائم السفرات

وحتى نتناول.. في زغزغة لا تثير أو تجرح.. المسؤولين بالشركة.. فنقول:

فدونكموا هذا الدركسون.. أو خذوا من اللي كروكم.. كامل الريالات
فهم فلتوني من قراشي.. وحيدة أجرب في طول الطريق.. ثباتي
وما فتشوا من قبل ذلك عدتي ولا وضعوا لي باقي الأدوات
ولا شتموني أي يوم لما جرى ولا سألوا المسؤول عن حركاتي
تعالي وروحي كل ذلك شغلهم أديني أجيهم ـ أو أروح ـ يوماتي

* * *

ولقد عشنا فعلاً نروح ونجيء كل أسبوع.. مستبسلين في خوض معارك الطريق بين جدة ومكة.. ثم بينها وبين الطائف في زمن الصيف.. وبينها وبين المدينة المنورة حيث المغامرة الكبرى لا تقاس إليها النوادر والمفارقات ـ والمصاعب التي كان يلقاها آباؤنا وأجدادنا الرواد الأوائل فيما كانوا يسمونها ـ الركوب! جمع ركب.. وهم جماعة من الناس يركبون ظهور الحمير التي يربونها خصيصاً لزيارة المسجد النبوي ومعهم زادهم.. ونبابيتهم.. وشواحطهم وأخراجهم الملأى بالزاد.. يعودون بها موقرة بتمور المدينة.. ويتقدمون "المزهد" وهو مغنى الركب ـ أو "حاديه" بلغة الأجداد القدامى.. بعد أن يكون قد أخذ يستنفر الناس للخروج مع الركب أياماً وليالي في البلدة كما يفعل القاصدون لمعركة ما. وللركب ـ ومزهده ـ وقوانيه مجال طويل ليس هنا محله كله بطبيعة الحال وإني لأحس استرواحاً في سرد ما سلف وما قد يعتبره البعض فضولاً في السرد ـ أو نطة بعيدة في الاستطراد بين ما كنت بسبيله عن وصولي من جدة إلى الطائف عام ١٣٨٤ بطائرة تخترق السحاب.. وما ذكرته عن المواصلات تتملل بين أمواج الرمال.

ولكني أنذركم بأن ما قلت.. هو الطابق.. أما "الكسرة".. فهي خاصة بالطائرة نفسها.. وقبل الخوض لا بدّ لنا من تعريف كلمتي "الطابق ـ والكسرة" وهما بإيجاز من اصطلاحاتنا البلدية في حفلات العرس البلدي القديم.. فقد كان لزاماً فيها أن يزف العروس مرتدياً الجبة والعمامة الألفي.. وذلك قبل دخوله ـ للنصة ـ بالطيران تنقر على رأسه من المغنية وزميلاتها. وكانت تلك العملية تسمّى على أيامنا ـ التزحيف ومن مستلزمات هذا التزحيف أن يكون له "طابق" أي دق مقرر

كفاتحة.. ثم كسرة.. أي نقر مخصوص.. كخاتمة.. يعني هناك.. مشق.. ومحط.. بلغة.. المجسات.. وطابقي الذي سلف إنما كان عن حالة الطرق البرية والسيارة، أما "الكسرة" فهي عن حالة الطائرات التي ركبتها يوم أن انتقلت بواسطتها من جدة للطائف.. دون مشاهدتي للجبل الذي صار سهلاً.. فقد أراد الله.. ولا راد لقدره.. أن نصعد لنحشر بها في أشد أيام الحر نزا متواصلاً.. وعرقاً منعدم النظير.. ثم تبيّن أن أعضاءها لأمر ما قد تصلّبت وكدنا داخلها نفطس.. كما نقول من الومد حتى أذن لنا بالخروج منها لإجراء اللازم لها.. مما جعل ذاكرتي تلقائياً تقفز لأداء واجب المقارنة بين سيارة البريد في الخمسينات.. وبين طائرة الخطوط في الثمانيات.. ومما أكّد لي الحقيقة الرائعة في الحملة الشائعة.. إنما يعيد التاريخ نفسه.. وتحاشياً للإطالة.. وتمهيداً لإيراد الكسرة شعرية عن الطيارة مقابل إيرادنا ـ الطابق ـ شعرياً.. كذلك.. عن السيارة.. يستحسن إيراد بعض ما قلناه عنها وكانت كونفيرا.. في الآتي:

ولقد ركبت على السلالم.. خائفا أتلو على "الكونفير" سورة مريم

فرصدتها بمكانها.. فتصلّبت منها المراوح.. لم تدر.. أو تبرم

وجلست والركاب بين جنوبها فكأنني.. وكأنهم.. في قمقم

* * *

حتى استعانوا.. في الأخير.. ببطبط شهم.. كشحطان اللحى.. متقدم

إن البطابط في مطارات الورى فن الأعارب.. لا فنون الأعجمي

ما ضرهم.. يا خال.. لو عملوا لها تيستا.. يقوم بها مقام المرهم؟!

* * *

فلا أجد.. للاستنفار وللاستخفاف بعد بحث مضن وتفتيش دقيق إلاّ هذه الجملة أتمتم بها على مرأى من الجبل.. ومسمع منه.. ألا ما أشبه الليلة بالبارحة!!

(٣٤)

العودة. . !

وسافرت في النهاية إلى بلد بعيد عن كرا. . وعشت حريصاً على ألا أصعد جبلاً ممهداً. . أو غير ممهد هناك. . حتى لا أشرك في قلبي حباً لجبل غريب. . بعد حبي لهذا الجبل القريب منه. . بل والساكن فيه. . على أنني رغم البعد المكاني والزمني بقيت البعيد القريب. . فأنا على صلة دائمة. . وتحسس ـ واستعلام. . وسؤال لا ينقطع عن حاله. . وعما فعلته الأيدي. . والأدوات الحديثة والآلات الضخمة. . فيه.

وكان أن تجمّعت لي من كل ذلك. . مضغوطة في سطور هذه السطور:

١ ـ بلغت كميات الديناميت المستعملة لنسف صخوره ـ ١٢٠٠ ـ ألفاً ومائتي طن.

٢ ـ وكميات الصخور المنسوفة به ـ ٤٠٠٠٠٠٠ ـ أربعة ملايين متر مكعبا.

٣ ـ وكميات الخرسانة المسلّحة للجسور وللحواجز وغيرهما ـ ٨٠،٠٠٠٠ ـ ثمانون ألف متر مكعب.

٤ ـ والخرسانة البيضاء للحوائط الساندة وفتحات تصريف المياه ـ ٣٤٠،٠٠٠ ـ ثلاثمائه وأربعون ألف متر مكعب.

٥ ـ كميات الردميات لغمل الجسور وما تحت طبقات الأساس ١,٧٠٠٠٠٠ ـ مليون وسبعمائة ألف متر مكعب.

٦ ـ والخرسانة الإسفلتية ٤٠,٠٠٠ أربعون ألف متر مكعب.

٧ ـ وبلغت المساحة المغطاة بها ـ ٦٥٠,٠٠٠ ستمائة وخمسين ألف متر مسطح.

٨ ـ مستهلكة من الإسفلت نفسه ـ ٣,٦٠٠ ثلاثة آلاف وستمائة طن.

وانتظرت اليوم الذي أطالعه فيه، ويطالعني هو فيه.. بوجه جديد.. وبقوام رشيق.. وبابتسامات متتالية عذبة.. بعد هذا العذاب.. يهنأ بها.. ويطلقها من ملف في دربه الجديد.. أي ملف جديد.

وتساقطت ـ كأوراق الخريف ـ أوراق النتيجة اليومية.. أمامي.. فإذا أنا وفي نفس التاريخ الذي كنت فيه عامي المنصرم قد عدت إليه.. عدت مصمماً أن أراه حديثاً من نفس الدرب الذي رأيته فيه قديماً وتعرّفت به بواسطة حمار الجدابي أحد أبناء وادي الأعمق القابع هانئاً فوق قمته الخضراء.

وفي صباح مشرق كنفسي به.. وبطريق مسفلت لا نتوء ولا عقبة فيه ركبت.. بدل حمار الجدابي.. سيارة يقودها صاحبها الشاب.. سيارة أنيقة.. في ضخامة.. سريعة.. في ثقة.. مريحة كل الراحة.. لا تجعلك بعد أن تبلغك مأمنك ومأربك تشعر إطلاقاً بما كنت تشعر به من تسلخ ساق أو تصلّب ركبة.. أو تقوّس ظهر.. أيام حمير الجدابي..

وتلك نعمة من نعميات الحضارة ننسى بها سابقها حين نألفها ـ لننسى ما كنا فيه من تعب.. وعنت.. وإرهاق.. بل ربما أنستنا إلفتنا لها وسهولة استعمالها وشيوعه.. وصيرورتها وسيلة طبيعية من وسائل المواصلات الحديثة أن نذكر.. فنشكر..

ولقد يغتفر للشاب هذا الجحود والكفران بالنعمة الحضارية تشمل مع السيارة الطائرة.. والمذياع.. والتلفزيون وسواها.. الذي ينشأ وبين يديه.. وأمام عينيه كل تلك النعمات الحضارية الحديثة.. الشائعة كالماء والهواء.. لا يدرك مدى قيمتها.. وما تحويه من متاع ممتع بالنسبة لمتجرع الحرمان الطويل السابق اكتوى بلظاه طويلاً.. وعانى من امتداده ما عانى.. من معاناة.

ويلوح لي بالمقارنة أن عصبة الكهول منا هم أجدر من هذا الشاب وأمثاله بالشكران.. وعرفان الجميل لمزخرفي الحياة الدنيا بطيبات من نعميات الحضارة وفضائلها يزجونهما.. ذكريات في إطار.. وفصولاً من روايات وأحاديث.. أو مقارنة تعقد بين قديم وجديد.. أو متابعة لآمال تتحقق.. وتلك ولا شك ضريبة الخضرمة للكهول في كل زمان ومكان..

على أنني قبل أن أواصل.. أو أن أنسى.. أحب أن أذكر مناسبة طريفة أذهلتني رغم غرابتها.. وإن لم تغب عني معرفة بواعث طبيعتها فقد أعرب قريبي سائق السيارة الشاب بعد أن حدثته عن ماضي الجبل في بلادنا.. وعن حاضر السيارة فيه.. وبهذا الطريق منه نسلكه فرحين مرحين.. مصوراً من كل ذلك بلغة الشعر.. رحلتي الأولى والثانية إليه فوق تلك الحمر القميئة البائدة يملكهما الجدابيان محمد وأحمد.. لقد أعرب قريبي الشاب في حماسة وفي شوق عن أمنيته في أن يقوم برحلة

كتينكما الرحلتين للجبل وفيه.. سالكاً إليه طريق الجمال.. ان بقي.. على حمار ـ ومع حمار كاللذين إليهما أشرت ـ ونوهت!!

فلم يسعني عند هذا الحد من إعرابه عن أمنيته إلا أن قلت له إن أمنيتك هذه تتفق تماماً وأمنية أي أمريكي مودرن نشأ تحوطه وسائل الراحة.. والمتعة.. والترفيه.. ولكنه ينزع بدافع من رغبة في تكوين حياته إلى النزعة الإسرائيلية سئمت طعام المن والسلوى وجبة مكرورة.. وقرمت أشد القرم إلى فومها.. وعدسها.. وبصلها.. كما أن أمنيتك هذه كذلك تشبه النادرة التي أرويها لك.. والتي رغم قذارة رائحتها تصور الموضوع ـ عابثاً فكها في المضمون وفي المغزى سواء.. بسواء وهي تقول:

كانت لرجل فاجر صلة بامرأة مثله.. وبينما كان لديها يوماً.. اقتضت المفاجأة اضطراراً أن تحبسه بأقرب مخبأ.. وكان المخبأ دولاباً أحتوى من أنواع وأصناف الروائح والبارفانات على أجودها وأرقاها.

وبينما جلست هي مطمئنة متحدثة مع القادمين الطارئين كان الرجل رفيقها سجين الدولاب غريقاً بين أقوى الروائح العطرة نفاذاً وأرقها شذى.. يميل يميناً فيشم الفوجير والسنتاليا.. ويميل شمالاً فتعبق بأنفه ليالي باريس وآخر بارفان حديث.. ولم يزل كذلك حتى سئم نعمة شم العطور يتمناها لنفسه سواه وضاق بها.. حتى لقد تاق إلى أضدادها.. فما كان منه إلا أن أهوى بقبضته على باب الدولاب.. فانفتح مكسوراً ليخرج صارخاً منه مستنجداً بمن أمامه..

الحقوني.. الحقوني.. يا ناس!!

شوية خ.. شوية خ..!!

ومع أن الشاب قد ضحك طويلاً.. إلاّ أنه بقى على إصراره، لم يتنازل عن أمنيته الغالية في أن يصعد جبل كرا يوماً ما عن غير طريقه المسفلت.. ماشياً على قدميه في صحبته حمَّار كالجدابي وبجواره حمار قمئ كلاهما ابن قح لهذا الجبل الذي صار سهلاً.. رغم أنفه.. وضد مشيئته وهواه!!

(٣٥)
النهاية السعيدة..

وبعد.. فلقد عاش هذا الجبل الذي صار سهلاً.. فقرة مهملة.. من سلسلة فقرات جبل السراة.. لا تومئ إليه إصبع مرتفعة.. ولا يجتذب إليه نظرة طويلة وامقة.. وربما زاد في تعاسته أن غطّت على ذكره جملة أو تفصيلاً ذكريات أجيال أخرى في بلاده قامت على مقربة.. أو مبعدة عنه.. وقد نالت ـ دونه ـ النصيب الأوفى من الذكر.. والتخليد.. والتمجيد.. ومنها.. وليس كلها.. حراء.. وثور خارج مكة.. وأبو قبيس بقلبها.. ثم أحد.. في مشارف طيبة الطيبة.. ترفرف حولها وحدها.. وتطوف بها جميعها.. هالات من نور.. وأرج من عطر النبوّة الفواح.. تبتلاً فيها.. أو معبراً لمنهج.. أو إعلاناً سافراً لدعوة التوحيد الكريمة.. أو حرباً دامية في الطريق الطويل العريض.. لنصرتها وأخيراً.. وفي سبيل ذكرى هذا الجبل.. ترديداً، وصدى.. تهيأ له الصيت البعيد.. بعد أن ناله جسدياً ما لم ينل سواه من جبال بلده.. على أيدي تلك المردة العملاقة الميكانيكية من دركترات.. وآلات ثاقبة.. وهراسات.. وروافع.. ومتفجرات.. وجف منها كلها قلبه ذعراً.. واضطربت بها أحشاؤه مزقاً.. وتهاوت تحت أقدامها عضلاته الصخرية

أوصالاً متناثرة.. في حركة لا تهدأ وضجيج لا ينقطع.. فكان شأنه وشأنها ما كان.. مما سجلته عليه بعد إحرازها النصر النهائي الحاسم.. أرقام وإحصائيات شهرت به.. وإن كانت قد أشهرته علماً بارزاً في دنيا المواصلات وتواريخها الفذة.. وينطلق التاريخ ـ بعد هجوع وتثاؤب مقهقهاً.. يركب أكتاف الزمن البطيء السادر المهدور.. في قفزة عالية من قفزاته الرائعة.. فإذا هذا الجبل الأشم معجزة بمناهجه.. وبمنهجه الأبلج.

وأشهد أنني حين رؤيتي له.. بعد سنوات.. وسنوات.. كنت معه كما يكون المحب الواله تفجؤه رؤية حبيبه النائي في أحلى لقاء.. وفي أروع بهاء.. وقد أصابني البهر.. متمتماً.. هل هذا.. كرا.. كرا..(؟؟) وأسمع بذات نفسي حسيسه الشعري الذائب بين جنباته وجنبات روحي.. أجل.. أجل.. أنا هو ذاك الذي عرفته صبياً بكر الصبابة والوجدان.

ولقد تداولنا في خشوع.. وخفوت ذكرياتنا لمحاً.. واستزادة.. ورضا.. حتى إذا رويت نفسانا.. وطاب باللقاء.. اللقاء لا يحدّده وصف، أو يقرره كلام مرسل.. عادت لكلينا طبيعته الشاعرة الساخرة.. فإذا الرواية فكاهة ضاحكة في فم اليوم الباسم.. وإذا أقاصيصنا عن الأيام.. أرقاماً تعد علينا مطبوعة في تقاويم لا نحس بها.. أعماراً من مراحل أعمارنا تتلاشى يوماً مؤرخاً مسجلاً علينا.. بعد يوم.. فضحكت وأومأت إليه.. قارئاً لرفيقي السائق الشاب الابن زهير عمر عبد ربه ما نطق به شيطاني الحلمنتيشي.. دعابة بريئة.. خالصة لوجه الفن.. وتحية أعلم مبلغ طرب كرا نفسه زميلي الصامت لها من كل قلبه:

إنـي طـلـعـت عـلـى كـرا ـ بـالـرجـل ـ أيـام الـحـمـيـر
مـتـشـربـطـا.. مـثـل الـقـرود بـه.. وقـد كـانـت كـثـيـر
متشقق الكعب المنفنف.. كالحبقبق.. يا مجير
حتـى وصلت إلـى الـهـدا.. وأكـاد من فـرحـي أطـيـر
أقـسـمـت أنـي لـن أعـود إلـى كـرا.. مـهـمـا يـصـيـر!
لـكـنـنـي فـي الـيـوم.. فـي سـيـارة الـجـار الأثـيـر
قلفطته.. نعسان.. منجعصاً.. كأني في السرير
فـرنـا إلـيَّ.. وقـال: أهـلاً بـالـحـبـايـب.. يـا جـريـر
ماذا جرى؟.. قلت ـ العجائب فيك ليس لها نظير
والله يـا شـيـخ الـجـبـال مـن الـسـراة.. إلـى عـسـيـر
لـولا الـمـخـافـة أن يـدردب صـخـرك.. الـمـطـر الـغـزيـر
لسكنت فيك العمر.. جنب المعسل الحلو النمير
أرقـيـك بـالـحـدرى.. أقـول مـن الـفـؤاد.. مـن الـضـمـيـر
قد صرت مفخرة الرجال من الكبير.. إلى الصغير!

* * *

ثم استأنيت.. وأطرقت واستأنى الجبل.. ولم يطرق.. وكان ذلك أول حديث لنا.. في أول لقاء جديد.. بعد عمر طويل ومرير..



فهرس المحتويات